جامعة الناصر

AL-NASSER UNIVERSITY

البعد البلاغي في شعر جرير الهجائي (دراسة بلاغية نقدية)

د/ عبدالكريم حسين رعدان

نائب عميد كلية التربية سقطرة

جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا

AUTHORIZED BY AL-NASSER UNIVERSITY'S RESEARCH OFFICE

جميع حقوق النشر محفوظة لمكتب البحوث والنشر بجامعة الناصر

البعد البلاغي في شعر جرير الهجائي (دراسة بلاغية نقدية)

د/ عبدالكريم حسين رعدان

نائب عميد كلية التربية- سقطرة

جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا

الملخص

2

تفرد هجاء جرير عن غيره بميزتين عامة وخاصة: أما العامة فهي الرعاية الرسمية من قبل الخلفاء والأمراء لفن الهجاء المعروف بفن النقائض عموماً، وأما الخاصة فإن جريرا كان يقف لوحده أمام جيش كبير من الشعراء الخصوم المهاجمين وهو في موقف الدفاع والرد.

ولقد حار النقاد في الحكم على شعر جرير وتفضيله، فبعضهم يرى أن شعر جرير هو ذلك الشعر السهل في ألفاظه الميسور في معانيه ودلالاته وهو ما جعله سائراً متمكناً في وجدان العامة، لكن هذا الرأي إذا سلمنا بصوابه لا يمنع اهتمام الخاصة به ومتابعتهم له تماما كما هو حظ غيره من الشعراء الأقران.

والقارئ لشعر جرير والذي غلب عليه موضوع الهجاء والمهاجاة يجده ذا لغة متينة وقوية بعيدة عن الإغراب إلى حد كبير، وتميز أسلوب جرير بتوجيهالخطاب مباشرة نحو المخاطب المهجو وحفل شعره بصور بلاغية قائمة على التشبيهات والاستعارات وبعض الكنايات، كماعتمد على مصطلحات ومسميات مكروهة وظفها في هجائه تجاه الخصوم، حتى إنه وصل في بعض الأحيان إلى حالة الفحش والإقذاع والإيلام.

ورغم ذلك يبقى الهجاء في تلك الفترة ومنه هجاء جرير نوعاً من العمل الفني المحترف لا يثير الخصومات كتلك التي كان يثيرها الهجاء في العصر الجاهلي.

مقدمة

الهجاء مصطلح مخيف - كان - بالنسبة لمن عاشوا في أزمان الأدب العربي القديم، أما نحن اليوم فهو - لدينا - غرض من أغراض الشعر التقليدية، ندرسه ضمن فنيات وأطر بحثية نقدية وتأريخية وغيرها.

فقد كان الهجاء - في وعي من أنتجه وتلقاه - واحداً من أدوات الصراع الفتاكة في المجتمعات العربية وخاصة في العصر الجاهلي، وامتد إلى العصر الإسلامي وأُستخدم في المواجهات الدائرة بين المسلمين والمشركين إبان إنطلاق الدعوة الإسلامية من قبل الطرفين، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله لحسان بن ثابت في غزوة أحد: "أهجهم فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام، في غلس الظلام، أهجهم ومعك جبريل روح القدس، والفَ أبا بكر يعلمك تلك الهنَّات "[1]. والهنَّات هي العيوب والمثالب التي كان يعرفها أبو بكر في أنساب قريش وأخبارهم.

ولعل شعر الهجاء أقدر من غيره من موضوعات وأغراض الشعر الأخرى في امتلاكه مقومات حفظه وروايته ومن ثم تدوينه، إذ يمتلك عنصر السخرية والتندر فيجعل المتلقي مشدوداً ومنجذباً لمتابعة ما يحويه من النقد الفردي أو الاجتماعي اللاذع.

وهذه الدراسة تقف - بصورة معمقة – على جزئية ربما غابت عن الكثير وهي البعد البلاغي في مهاجاة جرير، وبيان الأثر الذي جعل جرير يتفوق على أقرانه في فن الهجاء، وما أحدثه من دوي وفاعليه في التأثير النفسي والاجتماعي فاق كل تصور.

فيذكر النقاد القدماء أن شعر جرير كان ذا سيرورة وانتشار بين العامة أكثر منه بين الخاصة، وهو ما جعلهم يفضلون الفرزدق لسيرورة شعره بين الخاصة، إلا أن هذا الحكم غير دقيق، فالواقع يؤكد أن أشعار جرير والفرزدق ومعهما الأخطل - وخاصة في تلك النقائض التي دارت رحاها بينهم - كان الخلفاء وعلْيَة القوم وخاصتهم يتلقونها لحظة بلحظة، ولم يغب عنهم منها شيء، وما يفتأون يسألون عن كل بيت قاله كل من هؤلاء الشعراء الثلاثة، ويبدون عليه ملاحظاتهم، حتى إنه"لما بلغ عبد الملك بن مروان قول جرير:

هذا ابن عمِّي في دِمَشْق خليفةً لو شئتُ ساقكُم إليّ قَطينا

قال ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شرطيا أما إنه لو قال:

(لو شاء ساقكم إليّ قطينا) لسقتهم إليه كما قال"[2]. وأخبار كثيرة مماثلة في هذا الصدد.

بيد أن جريراً - في تقديري – كان أكثر حظوة من صاحبيه في اهتمام العامة بشعره وتناقله وحفظه أكثر من اهتمامهم بشعر صاحبيه، ويتضح بذلك قولهم[3] بأن أهجى بيت قالته العرب في الإسلام من غير فحش هو قول جرير:

فَغُضَّ الطَرفَ إنَّكَ مِن نُمَيرٍ فَلا كَعباً بَلَغتَ وَلا كِلابا

ثم إن سيرورة شعر جرير بين العامة تأكيد على قوته الهجائية، فتراهم يحفظونه ويتشافهون به تندراً بالمهجو، وإعجابا بما فيه من تشنيع ومعايب.

وعلى أية حال سيناقش هذا البحث في البداية على جرير وحياته الشعرية والظروف التي دفعت به إلى زمن أفناه في الصراع والمهاجاة، ثم يمر الحديث على المفهوم الأدبي للهجاء بصورة عجلى، ليتوقف

(1) سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ،ج8، ص63. وسنن أبي داود، رقم الحديث(5015).

(2) الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت،ج8، ص64، 65.

(3) ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. للذهبي ، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، لبنان - بيروت،الطبعة الأولى1407هـ -1987م. ج7، ص41.

النقاش بشيء من التأمل في لغة الهجاء لدى جرير وأسلوبه البلاغي، وأثر الهجاء وفاعليته، والتوقف مع نصين طويلين من نقائض الهجاء بالتحليل السريع.
وقد اعتمدت في إيراد معظم النصوص والاستشهادات الشعرية وضبطها على ديوان جرير الصادر عن دار صادر دون الإشارة إليها في الهامش نظراً لوفرتها وما عدا ذلك تمت الإشارة إليه في موضعه.

المفهوم الأدبي للهجاء

ينصرف الهجاء في مبناه اللفظي إلى السب والشتم والذم، وقد جاء في اللسان: "هَجاه يَهْجُوه هَجْواً وهِجاء وتَهْجاء، مدود: شتمه بالشِّعر، وهو خلاف المَدْح. قال الليث: هو الوَقِيعةُ في الأَشْعار"[4].
والهجاء واحد من الأغراض والموضوعات الشعرية الأكثر جذباً للمتلقي بالمقارنة مع الأغراض الأخرى، ويأتي الهجاء مصاحباً للفخر، وقد يأتي مستقلاً عنه في القصائد والمقطوعات القصيرة. والهجاء هو "فصل المرء عن مجموع الخلق الحي الذي يؤلف قومية الجماعة، وتركه عضواً ميتاً يتواصفون ازدراءه "[5]. فهو يُبنى - أي الهجاء- على ذكر المعايب والقبائح للأفراد أو القبيلة، بالطعن في الأنساب وإلصاق تهمة الجبن والبخل والتشنيع بالمهجو. وقد يكون ذلك اختلاقاً وأكاذيب.
وتوليد معاني الهجاء واختيار مفرداته قد لا تكون مستعصية على الشعراء "وقد قيل لشاعر: أنت لا تحسن الهجاء، فقال: بلى والله أتراني لا أحسن أن أجعل مكان عافاك الله أخزاك الله"[6].
وفي كل العصور الأدبية وإلى اليوم مارس الشعراء فن الهجاء. فالعصر الجاهلي هو الفترة الذهبية للهجاء، حيث فاعليته النافذة وأثره الاجتماعي والنفسي، ويمكن أن نطلق عليه في تلك الفترة "بالهجاء المبكي". فأعراف المجتمع الجاهلي القائمة على الصرامة في العادات والصفات اللصيقة بالشخصية، لا تقبل الجرح أو التعرض والمس خاصة في جانب العرض والنسب والشجاعة والكرم، ولذلك كان للهجاء أثره البالغ المؤلم "ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء، وهذا من أول كرمها، كما بكى مخارق بن شهاب، وكما بكى علقمة بن علاثة، وكما بكى عبد الله بن جدعان"[7].
ونرى قيس بن الحدادية يقول واصفاً اندفاع القوم في الحرب خوف مسبة الهجاء:

يُلَبّونَ في الحَربِ خَوفَ الهِجاءِ وَيَبرونَ أعداءَهُم بِالحَرَب[8].

وللهجاء طقوس خاصة، في النظم والأداء "ف الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حلة خاصة، ولعلها كحلل الكهان، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شقي رأسه ، وانتعل نعلًا واحدة ، ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سننهم في الحج، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر"[9].
وقصائد الهجاء تمتاز عن غيرها بسرعة الذيوع والسيرورة، يلقيها الشاعر شفاهية فيتلقفها الرواة ومنهم إلى الناس، ولا يمكن أن يُحال بينها وبين الانتشار، حيث يتحول المتلقي إلى ملقٍ من جديد، وقد روي: أن عمير بن جعبل حين هجا قومه ندم على هجائه لهم ولكن بعد فوات الأوان، فقد انتشرت القصيدة في الآفاق وسمع بها القاصي والداني، يقول[10]:

---

(4) لسان العرب،لابن منظور، دار صادر ، بيروت، الطبعة الأولى. مادة (هجا).
(5) تاريخ آداب العرب، للرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى2000م. ج 3، ص81.
(6) الأغاني، ج1، ص330.
(7) الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل1416- بيروت لبنان،هـ -1996م. ج1، ص200.
(8) الأغاني، ج14، ص148.
(9) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثامنة ص197.
(10) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار إحياء العلوم بيروت، الطبعة الأولى1404هـ/1984م ص438.

ندمت على شتم العشيرة بعدمـا مضت واستتبت للـرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطع دفعاً لما مضى كما لا يرد الدرّ في الضرع حالبه

ونتيجة لسرعة انتشار الهجاء " تجنَّب الأشرا ف مُمَازحة الشاعر، خوف لفظة تُسْمع منه مزحاً فتعود جداً"[11].

يقول شوقي ضيف: "فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقْرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائرًا بينهم؛ غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلًا بينها إبل لشاعر، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطروا اضطرارًا إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله. يروي الرواة أن الحارث بن ورقاء الأسدي أغار على عشيرة زهير، واستاق فيما استاق إبلًا له وغلامًا، فنظم زهير أبياتًا يتوعده بالهجاء المقذع، يقول فيها:

ليأتينك مني منطق قذع باق كما دنس القبطية الودك فَ

ففزع الحارث ورد عليه ما سلبه منه"[12].

وفي العصر الأسلامي تواصل الهجاء وإن كان بقدر أقل مما كان عليه في الجاهلية، وقد ورد على لسان حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم في معرض حديثه عن دفاعه عن الدعوة الإسلامية:

لنا في كُل يوم م ـ ن مَعـ دٍّ سِباب أو قِتال أو هِجَاء
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه وبَحْري لا تُكدِّره الدِّلاء (13)

أما الهجاء بمفهومه العام السابق فقد خَفَتَ صوته في صدر الإسلام، وخفَّت لهجته لنهي الإسلام عن التعرض للأعراض والقدح والإفتراء بغير الحق، فقد نقل عن الرسول الله صلى الله عليه و سلم قوله: "إن أعظم الناس جرما إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها ورجل تنفى من أبيه"[14].

ولهذا رأينا عمر بن الخطاب يلزم الشعراء بعدم التعرض للمسلمين بالهجاء والتشبيب، وقد سجن الحطيئة رائد الهجاء أنذاك، واشترى منه أعراض المسلمين، وفي ذلك يقول الحطيئة يشكو عدم فاعلية هجائه للقيود المفروضه عليه[15]:

وَأَخَذْتَ أَطرارَ الكَلامِ فَلَ ـ م تَدَع شَتماً يَضُرُّ وَلا مَديحاً يَنفَعُ
وَمَنَعتَني شَتمَ البَخيلِ فَلَم يَخَف شَتمي فَأَصبَحَ آمِناً لا يَفزَعُ

وفي العصر الأموي عادت العصبيات السياسية والقبلية كما كانت في العصر الجاهلي أو أشد، ونما مع هذه العصبيات الهجاء الشعري.

وتطور إلى مفاخرات منظمة كانت تجري بين الشعراء الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل في المربد حتى اصطلح على تلك المفاخرات بفن النقائض فيما بعد.

فالنقائض هي تحول الهجاء من غايته الجادة إلى غاية المتعة، وسد حاجات الجماعة، وإضفاء المرح على مجالس الأمراء وما إلى ذلك، حيث يقوم شاعر قبيلة بنظم قصيدة يفخر فيها بأمجاد قومه، ويتعرض

(11) العمدة لابن رشيق، تحقيق: د. محمد قرقزان، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الأولى1408هـ1988م ج1، ص174.
(12) العصر الجاهلي، شوقي ضيف. ص197
(13) ديوان حسان بن ثابت، شرح وضبط د.عمر فاروق الطباع، دار القلم. بيروت لبنان. ص13.
(14) الأدب المفرد، للبخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ، دار البشائر الإسلامية - بيروت
الطبعة الثالثة ،1409 –1989م. ص302.
(15) ينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، تحقيق: محمد نبيل طريفي ، وإميل بديع اليعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1998م. ج3، ص278.

لخصومها من القبائل الأخرى بالهجاء، فينبري له شاعر من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة مماثلة في الوزن والقافية[16].

وكان لهذه النقائض عوامل تعين على نموها وانتشارها، منها عوامل اجتماعية، تتمثل في إشغال فراغ الناس بضرب من الملاهي إلى جانب الدرس العلمي الجاد في البصرة وغيرها من المدن.

فإذا صاغ الفرزدق قصيدة يفخر فيها بأمجاد قومه ومآثرهم، رد عليه جرير ينفي عليه ادعاءه بقصيدة على وزن وروي القصيدة الأولى، وهكذا يفعل جرير مع الأخطل وغيره من الشعراء الذين يتعرضون له، فينبري لهم جرير مظهراً البراعة الأدبية والتفوق عليهم.

ومما زاد من قوة شعر النقائض أن شعراءها لم يسعوا إليها بدافع نيل العطاء من قبل المهجو أو من له مصلحة في تلك المهاجاة، كما هو الغالب على كثير من شعراء الهجاء مثل الحطيئة وغيره، فأدى إلى استقلال قصيدة الهجاء عن التصنع وجعل الدافع العاطفي منها قوياً.

ومما شجَّع على نمو هذا النوع الشعري تفتح العقل العربي على علوم أخرى تسربت من غير العرب وقادت إلى معترك من الجدل والمناظرة، فانعكست على شعر النقائض.

ويأتي عامل آخر وهو دور الخلفاء في تأجيج نار العداوة بين الشعراء بتشجيعهم وتفضيل شاعر على آخر، بغرض الترفيه والتسلية أحياناً، ولصرف الشعراء والقبائل عن السلطة وإشغالهم بأنفسهم أحياناً. كما كان الناس يشجعون هذه المفاخرات الشعرية، ويجتمعون ويهتفون ويصفقون تعصباً لهذا أو لذاك، واستمرت هذه النقائض دائرة بين هولاء الشعراء قرابة نصف قرن من الزمن[17]، تغذيها تلك العوامل، حتى أصبحت النقائض ضرباً من اللهو لأنها لا تجرُّ إلى الحروب والمنازعات كما كانت في الزمن الجاهلي.

ولا بد من الإشارة إلى أن تلك النقائض لم تكن مقصورة على قصائد طوال، فهي تدور أحياناً على مساجلات شعرية ببيت أو بيتين، ومن ذلك ما رواه الأصفهاني " أن جريرا والفرزدق اجتمعا عند بشر بن مروان فقال لهما بشر: إنكما قد تقارضتما الأشعار وتطالبتما الآثار وتقاولتما الفخر وتهاجيتما فأما الهجاء فليست بي إليه حاجة فجددا بين يدي فخرا ودعاني مما مضى فقال الفرزدق

نحن السَّنَامُ والمَنَاسِ ـــ مُ غيرُنا فَمَنْ ذا يُساوِي بالسَّنَامِ المناسمَا

فقال جرير

على موضع الأَسْتاهِ أنتم زعمتُمُ وكـــ لُّ سَنَـــ امٍ تابعٌ للغَلاَصِمِ

فقال الفرزدق

على مَحْرَثٍ للفَرْث أنت ـم زعمتُمُ ألاَ إنَّ فوق الغَلْصَمات الجَمَاجِمَا

فقال جرير

وأنبأتُمونا أنكم هامُ قومِ ـــــ كم ولا ه ـــــ امَ إلا تابـــ عٌ للخَرَاطم

فقال الفرزدق

فنحن الزِّمامُ القائدُ المقتدَى به من الناس ما زِلنا ولسنا لَهَازِمَا

فقال جرير

فنحن بَنِي زيد قطعنا زِمامِ ـــ ها فتاهت كسارٍ طائِش الرأسِ عارِمِ

(16) ينظر: العصر الإسلامي شوقي ضيف، ص241، 242.

(17) ينظر: طبقات فحول الشعراء ، لابن سلاّم الجمحي، تحقيق: محمود محمّد شاكر ، دار المدني ، جدة، ج2، ص389.

فقال بشر غلبته يا جرير بقطعك الزمام وذهابك بالناقة وأحسن الجائزة لهما وفضل جريرا"[18].

جرير حياته وثقافته الهجائية

جرير بن عطية بن الخَطَفي اليربوعي التميمي، ولقبه أبو حرزة من كبار شعراء العصر الأموي ، ولد ومات باليمامة، وكان شاعراً هجاء، وأحد رواد شعر النقائض الذي شغل الناس قديما وحديثاً.

نشأ جرير فقيراً يرعى إبل قومه، وبدأ نظم الشعر في مطلع حياته رجزاً منذ المهاجاة بين غسّان السليطي وبين الخطفي جده في أيام معاوية، ثم إن جريراً مدح يزيد بن معاوية وأخذ منه جائزة هي أول جائزة من خليفة[19].

ولما أشتد النزاع بين بني أمية وبين عبد الله بن الزبير وقف جرير في صفوف القيسيين من أنصار ابن الزبير يُهاجي القحطانية أنصار بين أمية.

انحدر جرير من اليمامة إلى البصرة مركز الحركة السياسية، وميدان شعراء المناقضات، واتصل بالحكم بن أيوب ابن عم الحجاج وعامله على البصرة حوالي سنة 75هـ، فوجهه الحكم إلى الحجاج فمدحه ونال جوائزه، ولكن الحجاج أراد أن يحبو الخليفة عبد الملك بهذا الشاعر الموهوب، فوجهه إليه، ومع أن عبد الملك لا يحب الاستماع إلى شعراء القيسية لكن توصية الحجاج بجرير أقنعت الخليفة بالاستماع إليه، فمدحه بالقصيدة المشهورة ومطلعها:

أَتَصحو أمْ فُؤادُكَ غَيرُ صاحِ عَشِيَّةَ هَمَّ صَحبُكَ بِال رَواحِ

ولا يكاد التاريخ يذكر جرير إلا ويقترن معه الفرزدق وهما شاعران كبيران يلتقيان في قبيلة تميم، الأول من عشيرة كليب اليربوعية، والثاني من عشيرة مجاشع الدارمية.

يكاد الاجماع بين النقاد قديما يتم على أن جرير في مقدمة الشعراء العرب، بل قال بعضهم: " جرير أشعر العرب كلها"[20].

بل وصل الأعجاب بجرير وشاعريته لدى بعضهم إلى التنبؤ بقيادة جرير لموكب الشعراء والفصل بينهم يوم القيامة حيث قال: "لا يزال الشعراء موقوفين يوم القيامة حتى يجيء جرير فيحكم بينهم"[21].

ثم إن الرواة ينظرون إلى شعر جرير بعين أوثق من شعر الفرزدق في حقيقة نسبته، وبعده عن السرقات الشعرية، وقد روي أن الأصمعي قال: " تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة، وكان يكابر. وأمّا جرير فما علمته سرق إلا نصف بيت؛ قال: ولا أدري؛ ولعّله وافق شيء شيئاً. قلت: وما هو؟ فقال: هجاء، ولم يخبرنا به"[22].

لم يكن هجاء جرير بالقدر اليسير بالنسبة إلى جملة شعره بل يجد القارئ لديوانه الشعري أن الهجاء قد امتد على مساحة واسعة وخاصة في قصائده الطوال.

ويرد العلماء السر في تفوق جرير ونبوغه في فن الهجاء إلى معرفته أعراف وأنساب القبائل وما فيها من مثالب، حيث ورث ذلك عن جده الخطفي[23].

ونستطيع أن نتبين قدرة جرير الهجائية حيث تمكن من هجاء ثلاثة شعراء في بيت شعري واحد، فقال:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسَمِي وَعَلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الأَخْطَلِ

(18) الأغاني، ج8، ص40.
(19) ينظر في ترجمته: الأغاني،ج8، ص5. والشعر والشعراء، ص96.
(20) الأغاني، ج8، ص78.
(21) نفسه، ج8، ص78.
(22) الموشح للمرزباني، ص34.
(23) ينظر: البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق : المحامي فوزي عطوي ، دار صعب – بيروت الطبعة الأولى 1968م.، ص192.

وذكروا[24] أن جريراً قال بيتا هجا فيه أربعة

إن الفرزدق والبَعيث وأمَّه وأبا البَعيث لشَرُّ ما إسْتارِ

وقال جرير: لقد هجوت التيم في ثلاث كلمات ما هجا فيهن شاعر شاعرا قبلي قلت

من الأصلاب يَنْزِل لؤمُ تَيْمٍ وفي الأرحام يُخلق والمَشيمِ

والمتتبع لديوان جرير الشعري وحياته يجد أن الهجاء قد امتزج بفكره وثقافته، ولا تكاد تجد موقفاً شعرياً يخلو من الهجاء، فيروى أن: "عطية بن جعال الغداني كان صديقا ونديما للفرزدق فبلغ الفرزدق أن رجلا من بني غدانة هجاه وعاون جريرا عليه وأنه أراد أن يهجو بني غدانة فأتاه عطية بن جعال فسأله أن يصفح له عن قومه ويهب له أعراضهم ففعل ثم قال:

أبني غُدانةَ إنني حَ ـــ رّرتكم ف ـوهبتكم لعطيةَ بنِ جُعال
لولا عطيةُ لاجتَدعْتُ أنوفكم من بين ألأم أعين وسبال

فبلغ ذلك عطية فقال ما أسرع ما ارتجع أخي هبته قبحها الله من هبة ممنونة مرتجعة"[25].

ولا بد من الإشارة إلى أن جرير أظهر مقدرة شعرية في الأغراض الشعرية الأخرى غير الهجاء، وقد تحدث هو نفسه عن إنشغاله بمهاجاة أقرانه عن النسيب فقال: " لولا ما شغلني من هذه الكلاب لشببت تشبيبا تحن منه العجوز إلى شبابها حنين الناقة إلى سقبها"[26].

ولعلنا ننقل الملاحظة النقدية التي شاعت بين العامة خاصة والتي تعزز من حيازة جرير للتفوق في أغراض الشعر الرئيسة، فيروى :أن أعرابياً من بني عذرة دخل على عبد الملك بن مروان يمتدحه بقصيدة وعنده الشعراء الثلاثة، جرير والفرزدق والاخطل، فلم يعرفهم الاعرابي، فقال عبد الملك للاعرابي: هل تعرف اهجى بيت قالته العرب في الاسلام ؟ قال: نعم ! قول جرير:

فَغُضَّ الطَرفَ إنَّكَ مِن نُمَيرٍ فـَـ لا كَعباً بَلَغتَ وَلا كِ ـــ لابا

فقال: أحسنت، فهل تعرف أمدح بيت قيل في الاسلام ؟ قال نعم ! قول جرير:

ألَستُم خَيرَ مَن رَكِبَ المَطايا وَأندى العالَمينَ بُطونَ راحِ

فقال: أصبت واحسنت، فهل تعرف أرق بيت قيل في الاسلام ؟ قال: نعم ! قول جرير:

إنَّ العُيونَ الّتي في طَرفِها حَ ـ وَرٌ قَتَلنَنا ثُمَّ لَ ـ م يُحيِ ـ ينَ قَتـــ لانا
يَصرَعنَ ذا اللُبِّ حَتّى لا حِراكَ بِهِ وَهُنَّ أَضعَفُ خَلقِ اللهِ أَركانا

فقال: أحسنت، فهل تعرف جريرا ؟ قال: لا والله، وإني إلى رؤيته لمشتاق، قال: فهذا جرير وهذا الفرزدق وهذا الاخطل"[27].

ونرى الفرزدق نفسه يرى في شعر جرير الرقة ويشهد له بذلك، فعندما سمع قول جرير:

ألاَ حيِّ الديار بسَعْ ـ دَ إنّي أحِبُّ لح ـ بِّ فـــ اطمةَ الديارا
أرادَ الظاعنون ليحزنُوني فهاجُوا صَدْعَ قلبيَ فاستطارا

"فقال الفرزدق ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز وأملحها ، قال: أو ما تدري لمن هذا الشعر ؟ فقال لا والله، قال هو لجرير يهجوك به، فقال: ويل ابن المراغة ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعري وأحوجني

(24) الأغاني ج8، ص8.
(25) نفسه، ج21، ص403.
(26) خزانة الأدب. ج1، ص92.
(27) البداية والنهاية، لابن كثير، ج9، ص288.

مع شهواتي إلى رقة شعره"[28]، ويعجب المرء حين يسمع بأن النوار زوجة الفرزدق عندما ماتت قاموا ينوحون عليها بشعر جرير[29] ويقصدون قصيدته التي يقول في مطلعها:

لَولا الحَياءُ لَعادَني اِستِعبارُ وَلَزُرتُ قَبرَكِ وَالحَبيبُ يُزارُ

ويتواتر الرأي النقدي لدى القدماء على تقدم جرير وتفضيله على أقرانه حتى في جملة شعره، يقول بن الأثير: "ولقد تأملت كتاب النقائض فوجدت جريرا رب تغزل ومديح وهجاء وافتخار وقد كسا كل معنى من هذه المعاني ألفاظا لائقة به ويكفيه من ذلك قوله

وَعَاوٍ عَوَى مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ رَمَيْتُهُ بِقافِيَةٍ أَنْفَذْهَا تَقْطُرُ الدَّمَا
وإِنِّي لَقَوَّالُ لِكُلِّ غَرِيبَةٍ وَرُودٍ إِذا السَّارِي بِلَيْلٍ تَرَنَّمَا
خَرُوجٌ بِأَفْوَاهِ الـ رُّوَاةِ كَأَنَّها شَبَا هُذُوانِيٍّ إِذَا هُزَّ صَمَّ مَا
غَرَائِبُ آلافُ إِذَا حَانَ وِرْدُهَا أَخَذْنَ طَرِيقاً لِلْقَصائِدِ مُعْلَمَا

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الأبيات لتقدم بها الشعراء"[30].

وجملة ما قيل في شاعرية جرير وشعره عموماً بأنه شاعر وجداني مطبوع، يجمع في شعره وضوح المعاني مع سهولة الألفاظ، ومتانة التركيب، وعذوبة السبك، وشعره كثير التداول على الألسن، شديد العلوق بالذاكرة، وهو ما دعى النقاد إلى القول: "جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر"[31].

ومن النقاد من يرى أن شعر جرير دون شعر الفرزدق، في نواح، فقد نقل أن " المبرد كان يفضّل الفرزدق على جرير ويقول: الفرزدق يجيء بالبيت واخيه وجرير يأتي بالبيت وابن عمه "[32]. وهذه الرؤية النقدية تشير إلى الترابط الدلالي وقوة العلاقة المعنوية في صياغة الشعر عند الفرزدق، وضعف في العلاقة المعنوية والترابط في أبيات القصيدة لدى جرير. غير أن هذه الرؤية لا تنطبق على جملة شعر الشاعرين.

ورؤية نقدية أخرى للقدماء ترى سعة دلالية وتنوعاً في هجاء الفرزق أكثر من هجاء جرير، فقد "سئل أبو عبيدة عن جرير والفرزدق: أيّهما أشعر؟ فقال ويحك هل قال جرير للفرزدق إلا في ثلاثة أنواع: الزبّير، وجعثن والقين؛ وللفرزدق فيه مائة نوع"[33]. ويعني ذلك التكرار في هجاء جرير حول القضايا تلك نفسها. وهذا صحيح، غير أن جرير أستطاع أن يشغل الدنيا بتلك القضايا في قصائده، واستخدمها جرير من خلال سياقات مختلفة، وكانت مؤلمة في وقعها على الفرزق رغم تكرارها.

لقد اعتد جرير بشعره وفخر بقصائده التي قالها بالأخص في الهجاء، وذكر فاعليتها ومسيرها في الأفاق، كما في قوله:

إِنَّ القَصائِدَ قَد جازَت غَرائِبُها ما بَينَ مِصرَ إِلى الأَجزاعِ مِن عَدَنِ

ويقول مصوراً لقصائده بالرحال يجهزها فتنطلق في الآفاق:

وَلَمّا رَأيتُ الناسَ هَرَّت كِلابُهُم تَشَيَّعتُ إِذ لَم يَحـ ـمِ إِلّا المُشايِعُ
وَجَهَّزتُ في الآفاقِ كُلَّ قَصيدَةٍ شَرودٍ وَرودٍ كُلَّ رَكـ ـبٍ تُنازِعُ
يَجُزنَ إِلى نَجرانَ مَن كانَ دونَهُ وَيَظهَرنَ في نَجدٍ وَهُنَّ صَوادِعُ

---

(28) الأغاني، ج15، ص132.
(29) ينظر: الأغاني، ج8، ص12.
(30) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد المكتبة العصرية - بيروت ،1995م. ج2، ص379.
(31) الأغاني، ج8، ص86.
(32) الموشح للمرزباني، ص40.
(33) الموشح للمرزباني، ص40.

تَعَرَّضَ أمثالُ القَـ ـوافي لَكَـ أنَّها نَجائِبُ تَعل ـو مِـ ربَداً فَتُطــالِـ عُ

ويبالغ في إعجابه بقصائده حتى أنه يفاخر الشعراء الأقدمين ومن جاء بعده بشعره، فيقول:

وَأدرَكتُ مَن قَد كانَ قَبلي وَلَم أدَع لِمَن كانَ بَعدي في القَصائِدِ مَصنَعا
تَفَجَّــ عَ بِسط ـامٌ وَخَبَّرَهُ الصَـ ـدى وَمـ ـا يَمنَعُ الأَصــ داءَ أَلّا تَفَجَّـعـ ا

ويبالغ في تصوير قوة قوافيه حتى جعلها مثل لهيب النار:

ستَطّلِعُ من ذَرَا شُعَبَي قوافٍ على الكِنْديِّ تلتهبُ التهابا

وقبل أن نختم الحديث عن هذا الشاعر نقول بأن جريراً امتلك إلى جانب الموهبة الشعرية الفطنة والذكاء وسرعة البديهة، كما عرف بالعفة والتقوى التي تفوّق بها عن صاحبه الفرزدق، فقد " حدث أبو عبيدة قال : التقى جرير والفرزدق منى وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير:

فإنك لاق بالمنازل من منى فخارا فخبرني بمن أنت فاخر

قال له جرير: لبيك اللهم لبيك. قال: فكان أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويتعجبون منه"[34].

وتشير الروايات أن الخليفة عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة وفد إليه الشعراء فردهم عدا جرير [35]، وهذ يؤكد ما ذكر من تقوى جرير والتزامه وعفته.

لغة الهجاء في شعر جرير

استخدم جرير في الهجاء لغة في غاية القوة والمتانة والجزالة، إذ اختار ألفاظاً ذات بنية صارمة في أصواتها وصفاتها ومخارجها، واعتمد على المسميات الحيوانية والدواب والمهن المنبوذة ومسميات القبح والرذيلة وحشد مفردات المكروهات في الدين وعرف المجتمع والقبيلة والنسب وما شاكلها، ومن ذلك: وصفه للفرزدق بأنه قينٌ أي حداد، والصناعة كانت من مثالب القوم، فيقول:

هُوَ القَيْنُ وابْنُ القَيْنِ لا قَيْنَ مِثْلَهُ لفَطْحِ المَسَاحِي أو لجَدْلِ الأدَاهم

ويصفه بالقرد في قصائد كثيرة، مثل قوله:

وَهَل كانَ الفَرَزدَقُ غَيرَ قِردٍ أصابَتهُ الصَواعِقُ فَاستَدارا

وقال:

أمسى الفَرَزدَقُ يا نَوارُ كَأنَّهُ قِردٌ يَحُثّ عَلى الزِناءِ قَرودا

ويقول في نقيضة أخرى:

فَإنَّكَ لَو تُعطي الفَرَزدَقَ دِرهَماً عَلى دينِ نَصرانِيَّةٍ لَتَنَصَّرا

وقوله يلمزه في دينه وعلاقته باليهود:

تُحِبُّكَ يَومَ عيدِهِمُ النَصارى وَيَومَ السَبتِ شيعَتُكَ اليَهودُ

ويعرض بأبي الفرزدق ولهوه عن المكارم واشتغاله بسفاسف الأمور:

أَلْهَى أَبَاكَ عن المَكَارِمِ والعُلا لَيُّ الكتائِفِ وارْتِفَاعُ المِرْجَلِ

(34) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للعباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد عالم الكتب، بيروت، 1367هـ1947م.ج2، ص266.
(35) ينظر: الأغاني، ج8، ص51.

ويرد جرير متهكما وساخرا على الفرزدق وقد ذكر فحشاً:

تدليت تزني من ثمانين قامة وقصرت عن باع العلا والمكارم

ولقد كثرت المفردات في هجاء جرير حول موضوع الأعراض، كوصف النساء بالفاحشة والخبث وتكلم عن أعضاء المرأة والرجل وذكر أفعال الفاحشة والزنا وما يتعلق بذلك من ممارسات. فتراه يقول:

أبلِغ بَني وَقبانَ أنَّ نِساؤُهم خورٌ بَناتُ مُوَقِّعٍ خَوّارِ
إنَّ اللِئامَ بَني اللِئامِ مُجاشِعٌ وَالأَخبَثونَ مَحَلَّ كُلِّ إِزارِ

ونراه يصف نساء بني عقال بالخبث ويشبههن بالحمير:

وَجَدنا نِسوَةً لِبَني عِقٍ ـــ الٍ بِدارِ الذُلِّ أَغراضَ الرُماةِ
غَوانٍ هُنَّ أَخبَثُ مِن حَميرٍ وَأَمجَنُ مِن نِساءٍ مُشرِكاتِ

ويقول:

وَالتَغلِبِيُّ إِذا تَنَحنَحَ لِلقِرى حَكَّ اِستَهُ وَتَمَثَّلَ الأَمثالا

ويقول:

أَخِلّاءَ الفَرَزدَقِ فَانصُروهُ أَخِلّاءَ الفَواسِقِ وَالزَواني

ونرى في لغة هجاء جرير استخداماً للمفردات الفاضحة المكشوفة، وكان بإمكان جرير أن يتخذ من الكناية اللفظية بديلاً لتلك المفردات، لكن لعل الغرض منها الإضحاك والسخرية، وهذا ما نراه في قوله للفرزدق يعير مقاتل بن طلبة وقد زوج ابنته خولة لشاعر وضيع[36]:

رأيت مقاتل الطلبات حلّى فروج بناته ك ـــ مر الم- والي
لقد أنكحتم عب ـ داً لعبـ دٍ من الصّهب المشوّهة السبال
فلا تفخ ـــ ر بقيسٍ إنّ قيساً خرئتم فوق أعظميه البوالي

ويبدو أن مفردات الفحش كانت فاعلة أكثر من غيرها، وهذا ما دفع جرير إلى توظيفها في هجائه، وقد قال: "هجوت بني طهية أنواع الهجاء فلم يحفلوا بقولي حتى قلت في قصيدة الراعي:

كأنّ بني طَهيَّةَ رهطُ سَلْمَى حجارةُ خارىءٍ يَرمِي كلابَا

فجزعوا حينئذ ولاذوا بي"[37].

ويمكن القول إن لغة الهجاء لدى جرير لم تكن كلها بتلك القوة فقد داخلها الضعف في بعض مهاجاته، وشابتها ركاكة ليست بخافية على المنطق الشعري، ولا ترقى إلى اللغة الشعرية التي رأينها في الأمثلة السابقة. ومن ذلك قوله:

لَقَدْ ولَ دَتْ أَمُّ الفَرَزْدَقِ فاجِـ راً فجِـ اءَت بوزْوَازٍ قَصيرِ القَوَائِـم
وما كـان ج ـارٌ للفَرَزْدِقَ مُسْلِمٌ لِيَأْمَنَ قِـ رْداً لَيْلَـهُ غَيْـــ ـرُ نـائِـم
أَتَيْتَ حُد ودَ اللهِ مُذْ أنتَ يافـ ـعٌ وشُبْتَ فَما يَنْهاكَ شَيْبُ اللَـ ـهازِم
لقدْ كنتَ فيها يا فرزدقُ تاب ـ ـعاً وريشُ الذُّناب ـيّ تابـ ـعٌ للق ـوادِم
بسيفِ أبي رغوانَ سيفِ مجاشِعٍ ضربتَ ولم تضربْ بسيفِ ابن ظالِم
ضربتَ به عندَ الإمام ِ فأرعشَتْ يداكَ وقالوا محدَثٌ غيرُ صارم

(36) ينظر: الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي – القاهرة ، الطبعة الثالثة 1417 هـ - 1997 م. ج2، ص57.

(37) الأغاني، ج8، ص78، 79.

وكما في قوله يعير الفرزدق بحرفته التي ورثها عن جده:

فَرَقِّ ـع لِجَدِّكَ أكيـــ ارَهُ وَأصلِـ ح مَتاعَكَ لا تُفسِد
وَأَدنِ العَلاةَ وَأَدنِ القَدومَ وَوَسِّع لِكيرِكَ في المَقعَدِ

الأسلوب البلاغي لدى جرير

سار جرير في هجائه على أساليب متنوعة، منها أسلوب الوصف السردي وتعداد صفات المهجو، ويتناول أعمق الخفايا.

ويستخدم أحيانا كثيرة أسلوب الحوار والمساءلة للمهجو، فتراه يسوق الحوادث بطريق الإستفهام المتوالي بغرض التعجب أحياناً من المهجو، وبغرض الاستنكار والتوبيخ للمهجو الذي لا يستطيع الرد أو النفي لما جاء في صيغة السؤال كما في قوله:

أَلَم نُعتِق نِساءَ بَن ـــ ي نُمَيرٍ فَلا شُكراً جَ ـــ زَينَ وَلا ثَوابـ ا
أَلَم تَرَني صُبِبتُ عَل ـى عُبَيدٍ وَقَد فارَت أباجِلُهُ وَش ـــــ ابا
أُعِدَّ لَهُ مَواسِمَ حامِي ـــــ اتٍ فَيَشفي حَرُّ شُعلَتِها الج ـــ رابا
فَغُضَّ الطَرفَ إِنَّكَ مِن نُمَيرٍ فَلا كَعباً بَلَ ـغـ تَ وَلا كِـــ لابا
أَتَعدِلُ دِمنَةً خَبُثَت وَقَ ـلَـ ت إِلى فَرعَينِ قَد كَثُرا وَط ـــ ابا

ويكاد شعره يتوزع بين الأسلوب الخبري والإنشائي ولربما نجد ميلاً في القصائد الطوال إلى الأسلوب الخبري فقد كان جرير يعدد صات المهجو وقبائحه، كما كان جرير يوجه الخطاب مباشرة إلى المخاطب ويسمي الأشخاص والقبائل دون حرج.

وقد يبدأ جرير أحيانا بالتحذير للمهجو، كما في تحذيره لبني حنيفة، وكان ميلهم مع الفرزدق عليه[38]:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا
أبني حني ـفة إنني إن أهج ـكم أدع اليمامة لا تواري أرنبا

وقد وصل الهجاء لدى جرير إلى درجة الفحش وهتك الأعراض حيث يصف جعثن اخت الفرزدق بأوصاف مقذعة، فيقول:

بات الفرزدقُ يستجير لنفسه وعِجانُ جعثنَ كالطريق المعملِ
أسلمتَ جعثنَ إذ يجرّ برجلها والمنقريُّ يدوس ـ ها بالمن ـشل

وخاصية أخرى تميز بها أسلوب جرير في هجائه ومناقضاته، وهي أنه كان يبني شعره على ماجاء في هجوم الشعراء الذين تعرضوا له، ويقف موقف الدفاع المفند لما جاء في شعر الخصم، وهذا ما ذكره جرير عندما دخل على الحجاج، "فقال له: إيه يا عدو الله علام تشتم الناس وتظلمهم فقلت جعلني الله فداء الأمير والله إني ما أظلمهم ولكنهم يظلمونني فأنتصر"[39].

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الأصفهاني[40]، في حوار جرير مع الحجاج بقوله: أما غسان بن ذهيل فإنه رجل من قومي هجاني وهجا عشيرتي بقوله:

لَعَمْرِي لئن كانت بَجِي ـلةَ زانَـ ها جَريرٌ لقد أَخْزَى كُلَيْباً جَ ـرِيرُها
رميتَ نِضَالاً عن كُلَيبٍ فقَصَّرتْ مَرَامِيكَ حتى عاد صِفْراً جَفِيرُها

(38) العمدة في محاسن الشعر، لابن رشيق، ج1،ص168.
(39) الأغاني، ج8، ص19.
(40) نفسه، ج8، ص19، 20.

ولا يَذْبَحـ ون الشـ اةَ إلا بمَيْسـ رٍ ط ـويلٌ تَنَاجِيها صِغ ـ ارٌ قُ ـدُورُها

قال الحجاج لجرير: فما قلتَ له؟ قال قلتُ:

أَلاَ ليت شِعْري عن سليطٍ ألم تَجِ ـــدْ سَلِيطٌ سِوَى غَسَّانَ ج ـاراً يُجِيرُها
فقد ضمَّنوا الأحسابَ صاحبَ سَوْءة يُناجِـ ي بها نفساً خبيثاً ضم ـيرُها
كأنَّ سَلِيطاً فـ ـي حَـ ـواشِنِها الخُصَى إذا حَـ لّ بين ألأَمْلَحَ ـ يْن وَقِيـ ـرُها
أَضِجّـ ـُوا الرَّوَايَا بالمَ ـــزَادِ فإنَّك ـم ستُكْفَوْنَ رَكْضَ الخيلِ تَدْمَى نحورُها
كـ ـــأن السَّليطِيَّاتِ مَجْنَـ ـاةُ كُـ ـــمْـ ـأَةٍ لأَوَّلِ جـ ـ انٍ بالعَصا يَسْت ـثيره ـــ ا
غَضَارِيطُ يَشْوُون الفَرَاسِنَ بالضُّحَى إذا ما السَّرَايا حَثَّ رَكْضاً مُغِيرها
فما في سَلِيـ ـــطٍ فارسٌ ذو حَفيظ ـــةٍ ومَعْقِلُها يومَ الهِياجِ جُعُ ـــوره ـ ا
عجِبتُ من الدَّاعِي جُحَيشاً وصائداً وعَيْساءُ يسعَى بالـ ـــ لاَب نَفِيرُها

غير أن موقف جرير في الدفاع والرد لا يبدو أنه متكئ على شعر المهاجم، أو أنه يتنصص على نص الخصم، فتراه يترك الخصم جانباً، ويخترع شعره جديداً تبرز فيه قدرته التي تظهره متفوقاً في معانيه وصوغ أفكاره، متضمناً الرد والتفنيد لما يحتاجه متجاهلاً ما قاله الخصم.

ويسعى جرير إلى توظيف الفخر في قصائده لدعم الهجاء وقهر خصمه في إطار المقارنة بين مكارم ومورث أبائه وانحطاط المهجو وقبح ماضيه وأمجاده، فيقول يفخر بقومه على الفرزدق:

لَقَد عَلِمَ الفَرَزْدَقُ أنَّ قَومي يُعِدّونَ المَكَ ـــ ارِمَ لِلسِبابِ
إذا أَباوْنا وَأَبوكَ عُ ـــ دّوا أَبانَ المُقرِفاتُ مِنَ العِرابِ
فَأَورَثَكَ العَ ـــ لاةَ وَأَورَثونا رِباطَ الخَيلِ أَفنِيَةَ القِ ـ بابِ

ويستند جرير في فخره على تقصي أيام كانت لقيس ووقائع أخزي فيها الفرزق ورهطه، فيقول[41]:

تُحَضِّضُ يا ابنَ القَينِ قَيساً لِيَجعَلوا لِقَومِـ ـكَ يَومـ ـــــاً مِثلَ يَومِ الأَراقِمِ
كَأَنَّكَ لَم تَشهَد لَقيـ ـطاً وَحاجـ ـــــباً وَعَمرَو بنَ عَمروٍ إِذ دَعوا يا لَدارِمِ
وَلَم تَشهَدِ الجَونَينِ وَالشِعبَ ذا وَشَذَاتِ قَيـ ـسٍ يَومَ دَيرِ الجَم ـــاجِمِ
الصَفا وَبِالحَزنِ أَصبَحَ ـ تُم عَبيـ ـدَ اللَهازِمِ
وَيَومَ الصَـ ـفا كُنتُم عَبـ ـيداً لِعامِـ ـرٍ وَتُخ ـــزَيكَ يا ابنَ القَ ـــينِ أَيامُ دارِمِ
إِذا عُـ ـدَّتِ الأَيّامُ أَخ ـــزَيتَ دارِمـ ـــاً

ويعتد جرير بذاته ويصل إلى أعلى درجات المبالغة، في فخره على خصمه، فيشبه نفسه بالدهر الذي لا يطاوله شيء ليلغي خصمه ولا يبقي له ما يفخر به، فيقول في عنفوان وغضب:

أَنا الدَهرُ يُفني المَوتَ وَالدَهرُ خالِدٌ فَجِئني بِمِثلِ الدَهرِ شَيئاً يُطاوِلُه

أما الصور الشعرية فقد ابتكر جرير صوراً شعرية موحية في مهاجاته، وهذا الصور تجعل خيال القارئ واسعاً يجول في أعماق النص يتأمل لوقت غير قصير، وتسعى تلك الصور لتحقق غايتين هما: الإضحاك والسخرية، كما أن معظم الصور الشعرية في مهاجاة جرير تأتي مستندة على الوصف والتعداد للسوءات، ومستندة كذلك على حشد من التشبيهات بالحيوانات كالقرود والخنازير والحمير وغيرها، ومن تلك الأوصاف قول جرير في قصيدة يصف فيها أخت الفرزدق "جعثن" بأقبح الصفات، فيقول:

(41) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ج2، ص60.

نَسيتُم عُقرَ جِعثِنَ وَاحتَبَيتُم ألا تَبّاً لِفَ ـخـــ رِكَ بِالحُبـ اتِ
وَقَد دَمِيَت مَواقِ ـعُ رُكبَتَ ـيها مِنَ التِبراكِ لَيسَ مِنَ الصَلاةِ
تبيتُ الليلَ تسلقُ إسك ـ تاها كدأبِ التركِ تلع ـبُ باكـ راتِ
وح ـطّ المنقريَّ بها فخرَّتْ علـــ ى أمِّ القفا واللّيلُ ع ـــ اتِ
تنادي غالباً وبن ـيِ عقـ الٍ لقدْ أخزيتَ قومكَ في النَّداتِ

وقد تضمن النص أيضاً كنايات واستعارات وتشبيهات قوية تصور هذه الفتاة غارقة في الفاحشة، وتبيت الليل تمارس المجون في هيئة قبيحة.
وفي هذه الأوصاف مبالغات تصل إلى حد القذف والإسفاف، وخروج بالهجاء إلى الفحش الذي كان عليه في الشعر الجاهلي.
وأما التشبيهات فتأتي في صور ساخرة مضحكة وهو يصور من يهجوهم مرة بالحشرات وأخرى بالقرود، وثالثة بالخنازير، يقول في بني وقبان:

أزرى بِحِلمِكُمُ الفِياشُ فَأنتُمُ مِثلُ الفَراشِ غَشينَ نارَ المُصطَلي

ويقول في آخرين مشبها الرجال بالجعلان والنساء بالقنافذ:

أمّا الرِجالُ فَجِعلانٌ وَنِسوَتُهُم مِثلُ القَنافِذِ لا حُسنٌ وَلا طيبُ

وشبه الشعراء الذين تعرضوا له بالثعالب العاوية التي أصابها فزع وقد كر عليها أسد هصور:

عَوى الشُعَراءُ بَعضُهُمُ لِبَعضٍ عَلَـــ يَّ فَقَد أص ـ ابَهُمُ اِنتِقـ امُ
كَأَنَّهُمُ الثَعالِبُ حي ـ نَ تَلـقـ ى هِزَبراً في العَرينِ لَهُ اِنتِحامُ

والتشبيهات في هجاء جرير لم تكن جامدة بل تراها تجسد هيئة مزرية نتيجة حسن الصياغة التي تدار فيها المفردات، فلم يقتصر جرير بتشبيه الفزدق بالقرد الذي يمارس الفاحشة بل تراه يبذل أقصى جهد في حث غيره من القرود لفعل الزناء:

أمسى الفَرَزدَقُ يا نَوارُ كَأَنَّهُ قِردٌ يَحُثّ عَلى الزِناءِ قَرودا

وتراه يتخذ من الخنزير رمزاً لنصرانية الأخطل التغلبي إذ يحلو للفزدق أن يجعل الخنزير له مثلاً:

إِنَّ الأَخَيطِلَ خِنزيرٌ أَطافَ بِهِ إِحدى الدَواهي الَّتي تُخشى وَتُنتَظَرُ

ونرى لجرير ابتكارات تصويرية في هجائه يتسع فيها الخيال إلى ماضي بعيد وهو يتحدث عن لؤم بني تيم، فيقول:

من الأصلاب يَنْزِل لؤمُ تَيْمٍ وفي الأرحام يُخلق والمَشيمِ

وهذه صورة عجيبة فعلاً لها تأثير مؤلم في نفس المهجو، وهو يصور رسوخ اللؤم في الأصل الإنساني لهؤلاء جميعا واستقراره في الإرحام.
وفي صورة أخرى للؤم بني نمير يصور جرير هذا اللؤم اللصيق بكبار القوم وفقهائهم لكنهم يحاولون تغطيته بمظهرهم الزائف، فهم يلبسون العمائم ليظهروا بمظهر الوقار والرفعة بينما هم يخفون اللؤم تحتها، فيقول على طريقة الاستعارة المكنية:

تُغَطّي نُمَيرٌ بِالعَمائِمِ لُؤمَها وَكَيفَ يُغَطّي اللُؤمَ طَيُّ العَمائِمِ

إن هذه الألفاظ التي ترسم تلك الصور جعلت لشعر جرير أثراً بالغاً وهذا ما أدركه جرير ليؤكد أن شعره كأس مرة يسيقها الشعراء، ويذيقهم مرارتها على طريق الاستعارة التصريحية فيقول:

أعَدَدتُ لِلشُعَراءِ كَأساً مُرَّةً عِندي مُخالِطَها السِمامُ المُنقَعُ

ومن الصور البديعة والابتكارات المعنوية التي يخص فيها الخيال قول جرير في بني نمير:

فلو وضعت فِقَاحُ بني نُمير عـلـــى خَبَثِ الحديد إذاً لَذَابَا

والحديد لا يذوب إلا بنار مستعرة، فهذه صورة قبيحة وكأن فقاحهم أكيار تنفخ ناراً تذيب خبث الحديد، والتركيب يحمل كناية تعريض تشير إلى امتلاء بطونهم بالهواء، ومن ثم إخراج الروائح النتنة.

فاعلية هجاء جرير

يرى بعض النقاد أن الهجاء الذي عرف به جرير في شعره لم يكن ذلك الهجاء الفاحش ويجعلونه هجاء مشوباً بالعفة وأقرب إلى الهزل. وهذه الرؤية قد تكون صائبة من حيث نتائج الهجاء الاجتماعية فهو لا يؤدي إلى حروب ومنازعات وصراعات، لكن من حيث الآثار النفسية يعتبر هجاءً فاحشاً وفيه تهكم وسخرية بالمهجو.

ورغم أن هناك بعض الأخبار تنقل أن قبائل تركت مرابضها نتيجة لهجاء جرير إلا أن مثل هذه الروايات لربما خالطها شيء من المبالغة وتبقى في دائرة الممكن ولا تقلل من شأن هجاء جرير.

ومن تلك الروايات أنه: "لما هجا جرير بني نمير بقوله:

فغضَّ الطَرْفَ إنك من نمير فلا كعبًا بلغتَ ولا كِلابا

أخذ بنو نمير ينتسبون إلى عامر بن صَعْصَعَة، ويتجاوزون أباهم نميرًا إلى أبيه، هربًا من ذكر نمير وفرارًا مما وسم به من الفضيحة والوصمة. مع أنهم كانوا قبل ذلك إذا سئل أحدهم ممن الرجل فخم لفظه ومد صوته

وقال: من بني نمير، وكانوا جمرة من جمرات العرب. وكان أحدهم إذا رأى نميريًّا وأراد نبزه والإساءة إليه قال له: غمِّض وإلا جاءك ما تكره، وهو إنشاد هذا البيت، وصار الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بني عامر"[42].

قال الجاحظ: "وفي نمير شرف كثير. وهل أهلك عنْزَة، وجرمًا، وعُكلا، وسلولَ، وباهلة وغنيًا، إلا الهجاء؟! وهذه قبائل فيها فضل كثير وبعض النقص، فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء. وهل فضح الحبطات، مع شرف حسكة بن عتاب، وعبَّاد بن الحصين وولده، إلا قول الشاعر:

رأيت الحمر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم"[43]

ويبدو لنا ذلك الأثر النفسي الذي أحدثه هجاء جرير في ما أورده الأصفهاني بقوله: " وقف الفرزدق على أبي بمربد البصرة وهو ينشد قصيدته التي هجا بها الراعي فلما بلغ إلى قوله

فغَضَّ الطَرْف إنك من نُمَير فـ لا كَعْـــ باً بلغت ولا كِلابا

أقبل الفرزدق على روايته فقال غضه والله فلا يجيبه أبدا ولا يفلح بعدها فلما بلغ إلى قوله

بها بَرَصٌ بجانبِ إسْكَتَيْها ...

وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنفقته فقال أبي:

(42) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقي، الطبعة الرابعة1422هـ/2001م. ج17، ص68.
(43) البيان والتبيين. ص576.

كَعَنْفَقَةِ الفرزدقِ حين شابَا

فانصرف الفرزدق وهو يقول: اللهم أخزه والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا ولكن طمعت ألا يأبه فعطيت وجهي فما أغناني ذلك شيئا[44].

وإذا كان الهجاء في تلك الفترة الأموية لم يعد بتلك الجدية التي كان عليها في العصر الجاهلي وتحوله إلى نوع من المرح والتسلية بين الخاصة والعامة، وبالأخص فن النقائض، إلا أن الهجاء مهما يكن فيه مرارة وفيه إذلال وانتقاص وإهانة حتى " قال عبد الملك بن مروان : يا بني أمية، أحسابكم أنسابكم لا تعرّضوها للهجاء، وإياكم وما سار به الشعر، فإنّه باقٍ ما بقي الدهر؛ والله ما يسرّني أني هُجيت بهذا البيت وأن لي ما طلعت عليه الشمس:

يبيتون في المشتى ملاءً بطونهم وجاراتهم غرثى يبتن خمائصا [45]

وكذلك كان هجاء جرير مؤلماً وموجعاً وبقيت آثاره فاعلة في المهجو، فجرير كان يتوخى نزع الفضائل والقيم عن المهجوين "وأجود ما في الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض"[46] حتى إن الرواة - وفق المعتقد الأسطوري- أطلقوا على الشيطان الذي يلقي الشعر إلى جرير "إبليس الأباليس "[47]، وهذه التسمية تأخذ بعداً نقدياً وتوحي بتفوق شعر جرير ووضعه في قمة الشعر المؤثر.

وقالوا بأن جرير أسقط ثمانين شاعراً [48]، في مقدمتهم الفرزدق والأخطل والراعي النميري والبعيث بن بشير والبلتع وسراقة البارقي والقريد، وقد أشار جرير إلى معاركه تلك في شعره وتحدث عن غلبته لهم، كمثل قوله:

أعَدَدتُ لِلشُعَ ـ راءِ كَأسـ ـــ اً مُ ـــ رَّةً عِندي مُخالِطَ ـهـ ـــ ا السِمامُ المُنقَعُ
هَلّا نَه ـــــ اهُم تِسعَـــ ةٌ قَتَّـ لتُهُم أَو أَربَعونَ حَدَوتُهُم فَاستَجمَعوا
كُـــ انوا كَمُشتَرِكينَ لَمّ ـ ا بايَعوا خَسِروا وَشُفَّ عَلَيهِمُ فَاستوضِعوا
أَفَيَنتَهونَ وَقَـ ـــ دِ قَضَيتُ قَضا ءهُم أَم يَصطَـ لونَ حَـ ـــ ريقَ نارٍ تَسفَ ـعُ
ذاقَ الفَرَزدَقُ وَالأُخَيطِلُ حَ ـ رَّها وَالبارِقِـ يُّ وَذاقَ مِنـــ ـها البَلتَعُ
وَلَقَد قَسَمتُ لِذي الرِق ـ اعِ هَديَّـ ةً وَتَرَكتُ فيهِ وَهِيَّ ـــ ةً لا تُرقَـــ عُ
وَلَقَد صَكَكتُ بَني الفَدَوكَسِ صَكَّةً فَلَقوا كَما لَقِيَ القُـ ـــ رَيدُ الأَصيلَ ـعُ

وفي الراعي النميري واسمه عبيد بن حصين، يقول جرير:

قَرَنتُ العَبدَ عَبدَ بَني نُمَيرٍ مَعَ القَينَينِ إِذ غُلِبا وَخابا

والبعيث وقد قال فيه:

وَلَقَد وَسَمتُكَ يا بَعيثُ بِمَيسَمي وَضَعَا الفَرَزدَقُ تَحتَ حَدِّ الكَلكَلِ

وعرادة وفيه يقول:

أَتاني عَن عَرادَةَ قَولُ سوءٍ فَلا وَأَبي عَرادَةَ ما أَصابا

---

(44) الأغاني، ج8، ص37،38.
(45) الأمالي في لغة العرب، لأبي علي القالي دار الكتب العلمية – بيروت1398هـ1978م.ج2، ص160. والبيت للأعشى.
(46) العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق، ص170.
(47) ينظر: المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، ج17، ص120.
(48) ينظر: خزانة الأدب للبغدادي، ج1، ص91.

وابن هندابة وفيه يقول جرير:

ظَلَّ اِبنُ هِندابَةَ الثَرّاءَ مُبتَرِكاً يَروي لِقَينٍ وَلَم يُندَب لِإِسعادِ

غير أنا لا نستطيع حصرهم كلهم، وهل كان إسقاطهم بالتغلب عليهم أو كفهم عن قول الشعر أو عدم التعرض لجرير بالهجاء؟

ويتحدث جرير عن فاعلية قصائده في القوم وتأثيرها الموجع، مشبهاً لها بالسيوف تارة تجدع الأنوف، وتطأ بأقدامها الهامات، وتارة أخرى بأنها عذاب سقط على القوم، كما في قوله:

إِنَّ القَصائِدَ قَد جَدَع ـ نَ مُج ـاشِعاً بِالسُمِّ يُلحَ ـ مُ نَسجُ ـها وَيُنارُ
وَلَقَوا عَواصِيَ قَد عَيِيتَ بِنَقضِها وَلَقَد نُقِضتَ فَما بِكَ اِستِمرارُ

ويقول:

إِنَّ القَصائِدَ قَد وَطِئنَ مُجاشِعاً وَوَطِئنَ تَغلِبَ ما لَها مِن زاجِرِ

ويقول:

إِنَّ القَوافِيَ قَد أَمِرَّ مَريرُها لِبَني فَدَوكَسَ إِذ جَدَعنَ عِقالا

ويمكن أن نضيف عاملاً آخر ساعد في فاعلية الهجاء وأثره النفسي، تمثل في فنية الأداء الشعري الذي كان لا يزال في العصر الأموي امتداداً للعصر الجاهلي، حيث يلقى فيه الشعر مشافهة، وتعمل فيه مدرسة الرواية الشفهية، ويتناقله الناس سماعاً.

فجرير مثل غيره من شعراء عصره كان ينشد الشعر في سوق المربد، حيث المنتدى الرسمي لتلك المهاجاة، فيحرص علية القوم وعامتهم على سماع كل جديد من أشعار الشعراء الثلاثة وغيرهم، فجرير يتحدث عن ذلك ويقول:

سارَ القَصائِدُ وَاِستَبَحنَ مُجاشِعاً ما بَينَ مِصرَ إِلى جَنوبٍ وَبارِ
إِنَّ القَص ـائِدَ لَن يَزَل ـ نَ سَوائِحـ اً بِحَديثِ جِعثِنَ ما تَرَنَّمَ س ـاري

وتجد من لم يتاح له الحضور وسماع الشعر مباشرة في تلك الجلسات، يسال من حضر، وبالذات عن ما حملته من هجاء. فقيل[49]: أن رجلاً دخل مجلساً وفيه الفرزدق، فقال : وردت اليوم المربد قصيدة لجرير، تناشدها الناس، فامتقع لون الفرزدق، فقال له الرجل: ليست فيك يا أبا فراس قال: ففيمن؟ قال: في ابن لجأ التيمي، قال: أحفظت منها شيئاً؟ قال: نعم، علقت منها ببيتين، قال: ما هما؟ فأنشده:

لئِنْ عُمِّرَتْ تَيْمٌ زِماناً بِعِـ ـزَّةٍ لَقَد خُدِيَتْ تيمٌ خُدَاءً عَصَبْصَبا
فَلا يَضْغَمَنَّ الليثُ عُكْلاً بِعِزَّةٍ وعُكْلٌ يَشَمُّونَ الفَرِيسَ المُثَيَّبَا

هذه العوامل جعلت من هجاء جرير بالغ التأثير حتى في أولئك الذين يمتلكون ناصية الشعر من أقرانه.

"قال بعض رواة قيس وعلمائهم كان الراعي فحل مضر حتى ضغمه الليث يعني جريرا

وقال أبو البيداء مر راكب يتغنى

وعاو عوى من غير شيء رميته بقاقـ ـية أسبابها تق ـ طر الدما
خ ـروج بأفـ ـواه الرواة كأنـ ـها قرا هن ـ دوانى إذا هز صمما

(49) طبقات فحول الشعراء. ج2، ص376.

فسمعه الراعي فأتبعه رسولا فقال : لمن البيتان ؟ قال : جرير ، قال : والله لو اجتمعت الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئا، ثم قال لمن حضر: ويحكم ألامُ على أن يغلبني مثل هذا . وإنما يعني جرير"[50].

ونجد عدداً من أبيات الشعر لدى جرير تسير مسار المثل والحكمة، يحكيها الناس وتشيع في مناسبات مشابهة، كما في البيت الشعري الذي قاله جرير رداً على الفرزدق الذي توعد مربعاً بالقتل عندما وجده يحفظ شعر جرير، فقال جرير متهكماً:

زَعَمَ الفَرَزْدَقُ أن سَيَقتُلُ مَربَعاً أبشِر بِطولِ سَلامَةٍ يا مَربَعُ (51)

وقد تضمن البيت تهكماً شديداً وتمثل به كثير من الخلفاء والأمراء لما يحمله من ظرافة وسخرية بالمخاطب.

وقد تحدثت كتب الأدب أن هجاء جرير أثر على الأفراد وعلى القبائل بمجموع أفرادها، حتى قالت بنو مشاجع[52] ما هجينا بشعر أشد علينا من قول جرير:

وبرحرحانَ غداةَ كبّلَ معبد نكحتْ نساؤهمُ بغيرِ مهورِ

وهكذا أعلن جرير حربه وشن هجومه على كل من وقف مع الفرزدق أو ساند خصومه من الشعراء، سواء أكانوا أفراداً أم قبائل، فيروى أن[53] قبيلة بنو الهجيم لما سمحوا ل لفرزدق أن ينشدهم شعراً في مسجدهم، وبلغ ذلك جريرا فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق فقال له شيخ منهم : يا هذا اتق الله فإن هذا المسجد إنما بني لذكر الله والصلاة، فقال جرير: أقررتم للفرزدق ومنعتموني وخرج مغضبا وهو يقول:

إنّ الهُجَـيْـ مَ قبيلةً ملعونةً حُصَّ اللِّحَى متشابهو الألوانِ
لو يَسمَعون بأكلةٍ أو شَرْبةٍ بعُمَانَ أضحى جمْعُهم بعُمانِ
متأبِّطـ ين بنيه ـمُ وبناتِه ـمْ صُعرَ الخدودِ لريحِ كلِّ دُخانِ

ونتيجة لهذا الهجاء الذي ضرب به جرير كل حدب وصوب لقي العديد من التهديدات وربما المحاولات لقتله، ومن ذلك قوله لعطية الحنيفي:

إن اليمامة أضحت لا أنيس بها إلا حنيفة تفسو في مناحيها

فلقيه عطية بن دعبل الحنفي فقال: يا جرير إنك قد عرفت نصرة الفخم وإن لي سيفاً يختصم الجزور فوالله لئن عدت لهجاء قومي لأسيلنه منك بشرطين. فقال: لا أنطق بعد هذا، فأعف هذه المرة"[54].

وقد عمل جرير على استغلال عدد من الحوادث والقضايا تجاه خصومه في الهجاء، وأخذت حيزاً واسعاً في شعره، وهي:

- حادثة غدر قبيلة مجاشع بالزبير بن العوام.
- حادثة نبو سيف الفرزدق عند ضرب أسير رومي.
- مجون الفرزدق وفسقه.
- حادثة جعثن أخت الفرزدق مع ابن مرة.

(50) نفسه، ج2، ص437.
(51) خاص الخاص، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق : حسن الأمين، دار مكتبة الحياة – بيروت. ص105.
(52) ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص72.
(53) ينظر: الأغاني، ج8، ص57.
(54) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني، ص177.

- مهنة الفرزدق وأبيه.
- نصرانية الأخطل وأكله لحم الخنزير وشربه الخمر.
- انتصار قيس على تغلب.

إذ تكررت هذه القضايا في قصائد جرير، ولم يترك مناسبة إلا وذكرها تصريحا أو وتلميحاً.

تحليل نصين هجائيين لجرير

بعد الإستعراض والنقاش لقضيا عديدة في هجاء جرير يجدر أن نقف على نصين مطولين من نقائض جرير بالتحليل العام لنرى كيف أدار جرير مهاجاته الصاخبة، ونتعرف على أسلوبه الفني، والبناء العام لقصائد المناقضات، وموقع الهجاء فيها.

النص الأول[55]

قَل لِلدِيارِ سَقى أط ـــــ لالَكِ المَطَرُ ... قَد هِجتِ شَوقاً وَماذا تَنفَعُ الذِكَرُ
أُسقيتِ مُحتَفِـــــ لاً يَستَنُّ وابِلُهُ ... أَو هاطِـ لاً مُرثَغِناً صَ ـــ وبُهُ دِرَرُ
إِذِ الزَمانُ زَم ـــــ انٌ لا يُقارِبُهُ ... هَذا الزَمانُ وَإِذ فيِ وَحشِهِ غِرَرُ
إِنَّ الفُؤادَ مَعَ الظُعنِ الَّتي بَكَرَت ... مِن ذي طُلوحٍ وَحالَت دونَها البُصَرُ
قالوا لَعَلَّكَ مَحزونٌ فَقُ ـــ لتُ لَهُم ... خَلّوا المَلامَةَ لا شَكوى وَلا عِذَرُ
إِنَّ الخَليطَ أَجَدَّ البَينَ يَومَ غَدَوا ... مِن دارَةِ الجَأبِ إِذ أَحداجُهُم زُمَرُ
لَمّا تَرَفَّعَ مِن هَيجِ الجَنوبِ لَهُم ... رَدّوا الجِمالَ لِإِصعادٍ وَما اِنحَدَروا
مِن كُلِّ أَصهَبَ أَسرى في عَقيقَتِهِ ... نَسقٌ مِنَ الرَوضِ حَتّى طُيِّرَ الوَبَرُ
بُزلٌ كَأَنَّ الكُحَيلَ الصرفَ ضَرَّجَها ... حَيثُ المَناكِبُ يَلقى رَجعَها القَصَرُ
أَبصَرنَ أَنَّ ظُهورَ الأَرضِ هائِجَةٌ ... وَقَلَّصَ الرَطبُ إِلّا أَن يُرى سِرَرُ
هَل تُبصِرانِ حُمولَ الحَيِّ إِذ رُفِعَت ... حَيٌّ بِغَيرِ عَباءِ المَوصِلِ اِختَدَروا
قالوا نَرى الآلَ يَزهى الدَومَ أَو ظُعُناً ... يا بُعدَ مَنظَرِهِم ذاكَ الَّذي نَظَروا
ماذا يَهيجُ ـــ كَ مِـــ ن دارٍ وَمَنـ زِلَةٍ ... أَم ما بُكاؤُكَ إِذ جيرانُكَ اِبتَكَروا
نادى المُنادي بِبَينِ الحَيِّ فَاِبتَكَروا ... مِنّا بُكوراً فَما اِرتابوا وَما اِنتَظَروا
حاذَرتُ بَينَهُمُ بِالأَمسِ إِذ بَكَ ـــ روا ... مِنّا وَما يَنفَعُ الإِشفاقُ وَالحَ ـــ ذَرُ
كَم دونَهُم مِن ذُرى تيهٍ مُخَفِّ ـــ قَةٍ ... يَكادُ يَنشَقُّ عَن مَجهولِها البَصَرُ
إِنّا بِطِـ ـخـفَـ ةَ أَو أَيّامِ ذي نَجَ ـ بٍ ... نِعمَ الفَوارِسُ لَمّ ـــ ا اِلتَفَّتِ العُذَرُ
لَم يُخ ـــ زِ أَوَّلَ يَربوعٍ فَوارِسُهُم ... وَلا يُقالُ لَهُ ـــ م كَـــ لّا إِذا اِفتَخَروا
سائِل تَميماً وَبَكراً عَن فَوارِسِنا ... حينَ اِلتَقى بِإِيادِ القُ ـلَـــ ةِ الكَدَرُ

لَولا فَوارِسُ يَربوعٍ بِذي نَجَبٍ ... ضاقَ الطَريقُ وَعَيَّ الوِردُ وَالصَدَرُ
إِن طارَدوا الخَيلَ لَم يُشوُوا فَوارِسَها ... أَو واقَفوا عانَقوا الأَبطالَ فَاِهتُصِروا
نَحنُ اِجتَبَينا حِياضَ المَجدِ مُترَعَةً ... مِن حَومَةٍ لَم يُخالِط صَفوَها كَدَرُ
إِنّا وَأُمُّكَ ما تُرجـ ـــ ى ظُلامَتُنا ... عِندَ الحِفاظِ وَما في عَظمِنا خَوَرُ
تَلقى تَميماً إِذا خاضَت قُرومُهُمُ ... حَومَ البُحورِ وَكانَت غَمرَةً جُسروا
هَل تَعرِفونَ بِذي بَهدى فَوارِسَنا ... يَومَ الهُذَيلِ بِأَيدي القَومِ مُقتَ ـــ سَرُ
الضارِبينَ إِذا ما الخَيلُ ضَرَّجَها ... وَقعُ القَنا وَالتَقى مِن فَوقِها الغَ ـبَرُ
إِنَّ الهُذَيلَ بِذي بَهدى تَدارَكَ ـــ هُ ... لَيثٌ إِذا شَدَّ مِـــــ ن نَجداتِهِ الظَفَرُ
أَرجو لِتَغلِبَ إِذ غَبَّت أُمورُهُ ـــ مُ ... أَلّا يُبارِكَ في الأَمرِ الَّـ ـذي اِئتَمَروا

(55) ديوان جرير. ص196.

خابَت بَنو تَغلِبٍ إذ ضَلَّ فارِطَ ـهُم ... حَوضَ المَكارِمِ إنَّ المَجـ ـدَ مُبتَدَرُ
الظاعِنونَ عَلى العَمياءِ إن ظَعَنوا ... وَالسائِلونَ بِظَهرِ الغَيبِ مـ ـا الخَبَرُ
وَما رَضيتُم لِأَجسادٍ تُحَـ ـرِّقُـ هُم ... في النارِ إذ حَرَّقَت أَرواحَهُم سَقَرُ
الآكِلونَ خَبيثَ الزادِ وَحـ ـدَهُمُ ... وَالنازِلونَ إِذا واراهُ مُ الخَمَـ ـرُ
يَحمي الَّذينَ بِبَطحاوَي مِنىً حَسَبي ... تِلكَ الوُجوهُ الَّتي يُسقى بِها المَطَرُ
أَعطوا خُزَيمَةَ وَالأَنصارَ حُكمَهُمُ ... وَاللَهُ عَزَّزَ بِالأَنصارِ مَـ ـن نَصَروا
إِنّي رَئيتُكُمُ وَالحَـ ـقُّ مَعضَبَـ ـةٌ ... تَخزَونَ أَن يُذكَرَ الجَحّافُ أَو زُفَرُ
قَوماً يُرَدّونَ سَرحَ القَـ ـومِ عادِيَةً ... شُعثُ النَواصي إِذا ما يُطرَدُ العَكَرُ
إِنَّ الأُخَيطِلَ خِنزيرٌ أَطـ ـافَ بِهِ ... إِحدى الدَواهي الَّتي تُخشى وَتُنتَظَرُ
قادوا إِلَيكُم صُدورَ الخَيلِ مُعلِمَةً ... تَغشى الطِعانَ وَفي أَعطافِـ ـها زَوَرُ
كانَت وَقائِعُ قُلنا لَـ ـن تُرى أَبَداً ... مِـ ـن تَغلِبٍ بَعدَه ـا عَينٌ وَلا أَثَرُ
حَتّى سَمِعتُ بِخِنزيرٍ ضَغا جَزَعاً ... مِنهُم فَقُلتُ أَرى الأَمواتَ قَد نُشِروا

أَحيا وُهُم شَرُّ أَحيـ ـاءٍ وَأَلأَمُـ ـهُ ... وَالأَرضُ تَلفُـ ظُ مَـ وتاهُم إِذا قَبِروا
رِجسٌ يَكونُ إِذا صَلّـ ـوا أَذانُهُمُ ... قَرعُ النَواقيسِ لا يَدرونَ ما السُوَرُ
فَما مَنَعتُم غَداةَ البِشرِ نِسوَتَكُم ... وَلا صَبَرتُم لِقَيسٍ مِثـ ـلَ ما صَبَروا

أَسلَمتُمُ كُلَّ مُجتـ ـابٍ عَبـ ـاءَتَهُ ... وَكُـ ـلَّ مُخـ ـضَرَةٍ القُـ ـربَينِ تُبتَقَرُ
هَلّا سَكَنتُم فَيُخفي بَعضَ سَوأَتِكُم ... إِذ لا يُغَـ ـرُّ في قَيـ ـتلاكُـ ـمُ غِـ ـيَرُ
يا اِبنَ الخَبيثَةِ ريحاً مَن عَدَلتَ بِنا ... أَم مَن جَعَلتَ إِلى قَيسٍ إِذا ذَخَـ ـروا
قَيسٌ وَخِندِفُ أَهلُ المَجدِ قَبلَ ـ ... ـكُمُ لَستُـ ـم إِلَيهِ مِ وَلا أَنتُم لَهُ مِ خَطَرُ
موتوا مِنَ الغَيظِ غَمّاً في جَزيرَتِكُم ... لَم يَقطَعوا بَطنَ وادٍ دونَـ ـهُ مُضَرُ
ما عُدَّ قَومٌ وَإِن عَزّوا وَإِن كَرَموا ... إِلّا اِفتَخَرنا بِحَقٍّ فَوقَ مـ ـا اِفتَخَروا
نَرضى عَنِ اللَهِ أَنَّ الناسَ قَد عَلِموا ... أَن لَيسَ لَـ ـن يُفاخِـ ـرَنا مِن خَلقِـ ـهِ بَشَرُ
وَما لِتَغلِبَ إِن عَدَّت مَسـ ـاعيها ... نَجمٌ يُضيءُ وَلا شَمسٌ وَلا قَمَـ ـرُ
كَم اِنَّت بَنو تَغلِبٍ لا يَعـ ـلُ جَدُّهُمُ ... كَالمُهلَكينَ بِذي الأَحقافِ إِذ دَمَروا
صُبَّت عَلَيهِم عَقيمٌ ما تُناظِـ ـرُهُم ... حَتّى أَصابَهُـ ـمُ بِالحاصِبِ القَدَرُ
تَهجونَ قَيساً وَقَد جَذّوا دَوابِرَكُم ... حَتّى أَعَزَّ حَصـ ـاكَ الأَوسُ وَالنَمِرُ
إِنّي نَفَيتُكَ عَن نَجدٍ فَمـ ـا لَـ ـكَ مِ ... نَجـ ـدٌ وَمـ ـالَكَ مِن غورِيِّهِ حَجَرُ
تَلقى الأُخَيطِلَ في رَكبٍ مَطارِفُهُم ... بَرقُ العَباءِ وَما حَجّوا وَما اِعتَمَروا
الضاحِكينَ إِلى الخِنزيرِ شَهـ ـوَتَهُ ... يا قُبِّحَـ ـت تِلكَ أَفواهاً إِذا اِكتَشَروا
وَالمُقرِعينَ عَلى الخِنزيرِ مَيسِرَهُم ... بِئسَ الجَزورُ وَبِئسَ القَومُ إِذ يَسَروا
وَالتَغلِبِيُّ لَئيـ ـمٌ حيـ ـنَ تَجهَرُهُ ... وَالتَغلِبِيُّ لَئيـ ـمٌ حيـ ـنَ يُختَـ ـبَرُ
وَالتَغلِبِيُّ إِذا تَمَّت مُـ ـروأَتُهُ ... عَبـ ـدٌ يَسوقُ رِكابَ القَومِ مُؤتَجَرُ
نِسوانُ تَغلِبَ لا حِلمٌ وَلا حَسَـ ـبٌ ... وَلا جَـ ـمـ الٌ وَلا دينٌ وَلا خَفـ ـرُ
ما كانَ يَرضى رَسولُ اللَهِ دينَهُمُ ... وَالطَيِّبانِ أَبو بَكـ ـرٍ وَلا عُمَـ ـرُ
جاءَ الرَسولُ بِدينِ الحَقِّ فَاِنتَكَثوا ... وَهَل يَضيرُ رَسـ ـولَ اللَهِ أَن كَفَـ ـروا

يا خُزرَ تَغلِ ـ بَ إنَّ اللهُ وَمَ حالَفَكُم ما دامَ في م ـ اردينَ الزَيتُ يَعتَصَرُ
تَسَربَلوا اللُؤمَ خَلقاً مِن جُلودِهِمُ ثُمَّ اِرتَدوا بِثِيابِ اللُـــؤمِ وَاِتَّزَروا
الشاتِمِـــ ينَ بَني بَكـ ــ رٍ إِذا بَطِنوا وَالجانِحِـ ينَ إِلى بَكرٍ إِذا اِفتَقَروا

هذه القصيدة في الأساس هي إحدى نقائض جرير جاءت رداً على نقيضة الأخطل الرائية التي هجاء فيها جرير بشدة ومطلعها:

خَفَّ القَطينُ فَراحوا مِنكَ أو بَكَروا وَأزعَجَتهُم نَوىً في صَرفِها غِيَرُ

ومما ذكره الأخطل في هجائه لقبيلة غدانة بن يربوع، إخوة كليب،يصفهم بالأغنام ويصف الرجال بالفاحشة والخبث والجشع والبخل، ، ويلصق بنسائهم الرذائل والفحش، فيقول:

أَمّا كُلَيبُ بنُ يَربوعٍ فَلَي ـــ سَ لَهُـ ـم عِندَ المَكارِمِ لا وِردٌ وَلا صَـــ ـدَرُ
مُخَلَّفونَ وَيَقضـ ـي النـاسُ أَم ـ رَهُمُ وَهُم بِغَيبٍ وَفي عَمياءَ ما شَعَروا
مُلَطَّمونَ بِأَعقارِ الحِيِ ـــ اضِ فَم ـا يَنفَـ ـكُّ مِـــ ـن دارِمِيٍّ فيهِم أَثَرُ
بِئسَ الصُحاةُ وَبِئسَ الشَربُ شُربُهُمُ إِذا جَـــ رى فيهِمِ المُزّاءُ وَالسَكَرُ
قَومٌ تَناهَت إِلَيهِم كُـ ـلُّ فـاحِشَـ ةٍ وَكُـــ ـلُّ مُخـــ ـزِيَةٍ سُبَّت بِها مُضَرُ
الآكِلِـ ونَ خَبيثَ الزادِ وَح ـــ ـدَهُ ـمُ وَالسائِلونَ بِظَهرِ الغَيبِ ما الخَبَرُ
وَإِذكُـــ ـر غُـ ـدانَةَ عِدّاناً مُزَنَّمَ ـــ ةً مِنَ الحَبـ ـَقِ لُقِّحَت حَولَها الصِيَرُ
تَمذي إِذا سَخُنَت في قُبلِ أَدرُعِها وَتَزرَنِمُ إِذا م ـــ ا بَلَّـــ ـها المَـ ـطَرُ
وَما غُدانَةُ فـــ ـي شَـ ـيءٍ مَكانَهُمُ أَلحابِسو الشاءِ حَتّى تَفضُلَ السُوَرُ
صُفرُ اللِحى مِن وَقودِ الأَدخِناتِ إِذا رَدَّ الـ ـرِفادَ وَكَفَّ الحالِبِ القَـ ـرِرُ
ثُمَّ الإِيابُ إِلـ ـى سِـ ـودٍ مُـــ ـدَنَّسَةٍ مـــ ـا تَستَحِمُّ إِذا ما اِحتَكَّتِ النُـ ـقَرُ
قَد أَقسَمَ المَجدُ حَقّاً لا يُحالِ ـــ فُهُم حَتّى يُحالِفَ بَطنَ الراحَ ـــ ةِ الشَعَرُ

وقصيدة جرير سارت في أسلوبها الفني وبنيتها العامة وفق تقليد القصيدة الجاهلية، في وقوفها على الديار والطلل، ووصف الرحلة وغير ذلك من عناصر المقدمة المعروفة. غير أن جرير يبدو في هذه المقدمة رقيق اللفظ، ذا عاطفة حزينة تجهش بذكريات الزمان، مع خطوات الظعن وتمايل الركب السائر ببطء، وكل ما حوله يهيج الأشجان، وهو يرى البعد الزماني والبعد المكاني المجهول الذي يغيب الحبيب أو المفقود.

ويستمر بهذا الوصف العاطفي الجياش مصحوباً بالغزل الطروب، وكأن هذه المقدمة أغنية لحنها يجري دون مغنٍ يغنيها لعذوبة ألفاظها.

ثم نراه ينتقل انتقالاً هادئاً بكل إنسياب إلى الافتخار بيربوع، ويتحدث عن البطولات والفوارس والمآثر والأمجاد التي لا يرى لها مثيلاً. ومن هنا يبدأ الهجاء بنفي أمجاد الآخر في سياق الفخر وما أثبته لذاته:

إِنّا وَأُمُّكَ ما تُرج ـــ ى ظَلامَتُنا عِندَ الحِفاظِ وَما فـ ـي عَظمِنا خَوَرُ
تَلقى تَميماً إِذا خاضَت قُرومُهُمُ حَومَ البُحورِ وَكانَت غَمرَةً جُسروا

ويستمر في هجومه اللاذع على قبيلة تغلب ويسوق حشدا من المعايب والصفات القبيحة يصم القبيلة بها ويذكر شاعرها الأخطل ويصفه بالخنزير في إشارة إلى عقيدته النصرانية التي لا تحرم هذا الحيوان.كما تعرض لعقيدته الفاسدة وضرب النواقيس وعدم احترام هذه القبيلة وشاعرها للقيم والمثل الفاضلة وخاصة

التي جاء بها الإسلام، ويتواصل بهذا الأسلوب الهجائي القوي إلى آخر القصيدة موجها حديثه عن قبيلة تغلب والأخطل دون أن يشير إلى آخرين يقصدهم بالهجاء كالفرزدق مثلاً، فالقصيدة أعدت في الأساس رداً على الأخطل وقصيدته.

لقد اختار جرير لقصيدته لغة رصينة ومتينة ذات أبعاد دلالية جدية، مستخدماً أسلوب الوصف والمقارنة أحياناً، واعتمد في معظمها على الجملة الخبرية بقصد إعطاء المخاطب قدراً كبيراً من أخبار قبيلة تغلب وشاعرها الأخطل وما تنطوي عليه حالتها من سوء، ولم تأت الأساليب الإنشائية إلا لماما.

إيقاع القصيدة قام على بحر البسيط ذي التفعيلة المزدوجة "مستفعلن فعلن" وهو يمثل الوقع الصارم وقد تناسب تماما مع موضوع القصيدة ومع دلالاتها القوية، فالبسيط من الأوزان العروضية التي تلائم موضوعات الفخر والهجاء وكذا المديح، وهي معاني فخمة يؤطرها هذا الوزن ويستوعبها فتجري فيه بكل سهولة ويسر.وتأتي القافية بروي الراء المرفوعة المطلقة، لتشكل ثنائياً إيقاعيا رائعا مع وزن البسيط، وحرف الراء كثر استخدامه روياً في الشعر القديم والحديث لما يحدثه من رنة ساحرة تستعذبها الأذن، وتهتز لوقعها المشاعر، وهي بوقعها القوي تحدث تنبيها دلالياً، ليستوعب الذهن المعنى بكل وضوح كما في أبيات هذه

القصيدة، فنرى في القافية مفردات متنوعة ما بين أسم وفعل مثل: الذكر البصر، بشر، القمر، انحدروا، كفروا ...

فكان بذلك إيقاع القصيدة إيقاعاً متلاحماً مع لغة القصيدة ودلالتها.

النص الثاني(56)

أَقِلّي اللَومَ عِ ــ اذِلَ وَالعِتـ ابا ... وَقولي إِن أَصَبتُ لَقَد أَصابا

أَجَدَّكَ ما تَذَكُرُ أَه ـــ لَ نَجـ ـدٍ ... وَحَيّاً طالَ ما اِنتَظَروا الإِيابا

بَلى فَارفَضَّ دَمعُكَ غَيرَ نَزرٍ ... كَما عَيَّنتَ بِالسَ ــ رَبِ الطِبابا

وَهاجَ البَرقُ لَيلَ ـــ ةَ أَذرِعاتٍ ... هَـ ـوىً مـ ا تَستَطيعُ لَهُ طِلابَ

فَقُلتُ بِحاجَةٍ وَطَوَيتُ أُخرى ... فَهـ اجَ عَلَـ يَّ بَينَـ هُما اِكتِئابا

وَوَجدٍ قَد طَوَيتُ يَكِ ـــ ادُ مِنهُ ... ضَميرُ القَلبِ يَلتَهِ ـ بُ اِلتِهابا

سَأَلناها الشِفاءَ فَ ـــ ما شَفَتنا ... وَمَنَّتنا المَواعِدَ وَالخِ ـــ لابا

لَشَتّانَ المُجِ ـــ اورُ دَيرَ أَروى ... وَمَن سَكَنَ السَليلَةَ وَالجِ ـنابا

أَسيلَةُ مَعقِدِ السِمطَينِ مِن ـ ها ... وَرَيّا حَيثُ تَعتَقِدُ الحِ ـقـ ابا

وَلا تَمشي اللِئامُ لَ ـــ ها بِسِرٍّ ... وَلا تُهدي لِجارَتِها السِبـ ـ ابا

أَباحَت أُمُّ حَزرَةَ مِ ـ ن فُؤادي ... شِعابَ الحُبِّ إِنَّ لَهُ شِعـ ـ ابا

مَتى أُذكَر بِخورِ بَني عِقِ ـ ال ... تَبَيَّنَ في وُجوهِهِمِ اِكتِـ ـ ئابا

إِذا لاقى بَنو وَقبانَ غَمّ ـــ اً ... شَدَدتُ عَلى أُنوفِهِمِ العِصابا

أَبى لي ما مَضى لي في تَميمٍ ... وَفي فَرعَي خُزَيمَةَ أَن أُعابا

سَتَعلَمُ مَن يَصيرُ أَبوهُ قَي ـ ناً ... وَمَن عُرِفَت قَصائِدُهُ اِجتِلابا

أَثَعلَبَةَ الفَوارِسِ أَو رِياحٍ ـــ اً ... عَدَلتَ بِهِم طُهَيَّةَ وَالخِشِ ـ ابا

كَأَنَّ بَني طُهَيَّةَ رَهطَ سَل ـ مى ... حِجارَةُ خارِئٍ يَرمي كِ ـ لابا

فَلا وَأَبيكَ ما لاقَيتُ حَ ـــ يّاً ... كَيَربوعٍ إِذا رَفَعوا العُق ـــ ابا

وَما وَجَدَ المُلوكُ أَعَ ـــ زَّ مِنّا ... وَأَسرَعَ مِن فَوارِسِنا اِستِلابا

(56) نفسه ص58.

وَنَحنُ الحاكِمونَ عَلى قُـ ـلاخِ كَفَينا ذا الجَريرَةِ وَالمُص ـ ابا
حَمَينا يَومَ ذي نَجَبٍ حِم ـ انًا وَأَحرَزنا الصَنائِعَ وَالن ـ هابا
لَنا تَحتَ المَحامِلِ سابِغ ـ اتٌ كَنَسجِ الريحِ تَطرُدُ الحَب ـ ابا
وَذي تاجٍ لَهُ خَرَزاتُ مُ ـ لكٍ سَلَبناهُ السُرادِقَ وَالحِج ـ ابَ
أَلا قَبَحَ الإِلٰهُ بَني عِ ـقـ الٍ وَزادَهُمُ بِغَدرِهِم اِرتِي ـ ابا
أَجيرانَ الزُبَ ـ ـ ـيرِ بَرِئتُ مِنكُم فَأَلقوا السَيفَ وَاتَّخِذوا العِيابا
لَقَد غَرَّ القُيونُ دَم ـ ـ ـاً كَريماً وَرَحلاً ضاعَ فَانتُهِبَ اِنتِهابا
وَقَد قَعِسَت ظُهورُهُمُ بِخَ ـ ـيلٍ تُجاذِبُهُم أَعِنَّتَ ـ ها جِـ ـذابا
عَلامَ تَقاعَسونَ وَقَد دَعاكُ ـ م أَهانَكُمُ الَّذي وَضَعَ الكِت ـ ـابا
تَعَشّوا مِن خَزيرِهِمُ فَنام ـ وا وَلَم تَهجَع قَرائِبُهُ اِنتِح ـ ـابا
أَتَنسَونَ الزُبَيرَ وَرَهطَ عَوفٍ وَجِعثِنَ بَعدَ أَعيَنَ وَال ـ رَبابا
وَخورُ مُجاشِعٍ تَرَكوا لَقى ـ يطاً وَقالوا حِنوَ عَينِكَ وَالغُ ـرابَ
وَأَضبُعُ ذي مَعارِكَ قَد عَلِمتُم لَقينَ بِجَنبِهِ العَجَبَ العُج ـ ـابا
وَلا وَأَبيكَ ما لَهُ ـ ـ ـ م عُقـ ـولٌ وَلا وُجِدَت مَكاسِرُهُم صِلابا
وَلَيلَةَ رَحرَحانِ تَرَكتَ شي ـ ـباً وَشُعثاً في بُيوتِكُمُ سِغ ـ ـابا
رَضِعتُم ثُمَّ سالَ عَلى لِحاكُ ـ م ثُعالَةَ حَيثُ لَم تَجِدوا شَ ـرابا
تَرَكتُم بِالوَقيطِ عُضارِط ـ ـ ـاتٍ تُرَدِّفُ عِندَ رِحلَتِها الرِك ـ ـابا
لَقَد خَزِيَ الفَرَزدَقُ في مَ ـعَدٍّ فَأَمسى جَهدُ نُصرَتِهِ اِغتِيابا
وَلاقى القَينُ وَالنَخَباتُ غَمّ ـ اً تَرى لوكوفِ عَبرَتِهِ اِنصِبابا
فَما هِبتُ الفَرَزدَقَ قَد عَلِمتُم وَما حَقُّ اِبنِ بَروعَ أَن يُهابا

أَعَدَّ اللهُ لِلشُعَراءِ مِنّ ـ ـ ـ ـي صَواعِقَ يَخضَعونَ لَها الرِقابا
قَرَنتُ العَبدَ عَبدَ بَني نُمَ ـ ـيرٍ مَـ ـ ـ ـعَ القَينَينِ إِذ غُلِبا وَخابا
أَتاني عَن عَرادَةَ قَولُ س ـ ـوءٍ فَـ ـ ـ ـلا وَأَبي عَرادَةَ ما أَصابا
لَبِئسَ الكَسبُ تَكسِبُهُ نُمَ ـ ـيرٌ إِذا اِستَأنوكَ وَاِنتَ ـ ظَروا الإِيابا
أَتَلتَمِسُ السِبابَ بَنو نُمَ ـ ـيرٍ فَقَد وَأَبيهِمُ لاق ـ ـ ـ ـوا سِبابا
أَنا البازي المُدِلُّ عَلى نُمَيرٍ أُتِحتُ مِنَ السَماءِ لَه ـ ا اِنصِبابا
إِذا عَلِقَت مَخالِبُهُ بِقَ ـ ـ ـ ـرنٍ تَرى الطَيرَ العِتاقَ تَظَلُّ مِنهُ أَصابَ القَلبَ أَو هَتَكَ الحِج ـ ابا
فَلا صَلّى الإِلٰهُ عَل ـ ـ ـ ـى نُمَيرٍ وَخَضراءِ المَغابِنِ مِن نُمَيرِ جَوانِحَ لِلكَلاكِ ـ ـ ـ ـ لِ أَن تُص ـ ابا
إِذا قامَت لِغَيرِ صَ ـ ـ ـ ـلاةِ وترٍ وَلا سُقِيَت قُبورُهُ ـ ـ ـ ـ مُ السَحابا
وَقَد جَلَّت نِساءُ بَن ـ ـ ـ ـي نُمَيرٍ يَشينُ سَوادُ مَحجِرِه ـ ـ ـ ـ ا النِقابا
إِذا حَلَّت نِساءُ بَن ـ ـ ـ ـي نُمَيرٍ بُعَيدَ النَومِ أَنبَحَتِ الكِ ـ ـ ـ ـلابا
وَلَو وُزِنَت حُلومُ بَن ـ ـي نُمَيرٍ وَما عَرَفَت أَنامِلُها الخِض ـ ـ ـ ـ ابَ
فَصَبراً يا تُيوسَ بَن ـ ـ ـ ـي نُمَيرٍ عَلى تِبراكَ خَبَّ ـ ـثَ تِ الـ ـ ـ ـ تُرابا
لَعَمرُ أَبي نِساءِ بَن ـ ـي نُمَيرٍ عَلى الميزانِ ما وَزَنَت دُب ـ ـ ـ ـ ابا
لَسَاءَ لَ ـ ـ ـ ـ ها بِمَقصَبَتي سِب ـ ـ ـ ـ ابا فَإِنَّ الحَربَ موقِدَةٌ شِه ـ ـ ـ ـ ابا

سَتَهدِمُ حائِطَي قَرم ـاءَ مِنّي قَـ وافٍ لا أُريدُ بِـ ها عِتـــ ابا
دَخَلنَ قُصورَ يَثرِبَ مُعلِماتٍ وَلَم يَترُكنَ مِن صَن ــعـ اءَ بابا
تَطولُكُمُ حِبالُ بَن ـــــ ي تَميمٍ وَيَحمي زَأرُها أَجَماً وَغ ـــــ ابا
أَلَم نُعتِق نِساءَ بَن ـــ ي نُمَيرٍ فَلا شُكراً جَ ـــ زَينَ وَلا ثَوابـ ا

أَلَم تَرَني صُبِبتُ عَل ـى عُبَيدٍ وَقَد فارَت أباجِلُهُ وَش ـــــــ ابا
أُعِدَّ لَهُ مَواسِمَ حامِي ـــــ اتٍ فَيَشفي حَرَّ شُعلَتِها الج ـــ رابا
فَغُضَّ الطَرفَ إِنَّكَ مِن نُمَيرٍ فَلا كَعباً بَلَ ـغـ تَ وَلا كِـــ لابا
أَتَعدِلُ دِمنَةً خَبُثَت وَقَ ـلـَـ ت إِلى فَرعَينِ قَد كَثُرا وَط ـــــ ابا
وَحُقَّ لِمَن تَكَنَّ ـفَـ هُ نُمَـ ـ يرٌ وَضَبَّـ ةٌ لا أَبالَكَ أَن يُع ـــ ابا
فَلَولا الغُرُّ مِن سَلَفي كِ ـ لابٍ وَكَعبٍ لَاغتَصَبتُكُمُ اِغتِـ ـصـ ابا
فَإِنَّكُمُ قُطينُ بَن ـــ ي سُلَيـــ مٍ تُرى بُرقُ العَباءِ لَكُ ـ م ثِيـ ابا
إِذاً لَنَفَيتُ عَب ـــ دَ بَني نُمَيرٍ وَعَلَـ يَّ أَن أَزيدَهُـــ مُ اِرتِيابا
فَيا عَجَبي أَتوعِ ـــ دُني نُمَيرٌ بِراعي الإِبلِ يَحتَ ـرِشُ الضِبابا
لَعَلَّكَ يا عُبَيدُ حَسِبتَ حَربي تَقَلَّدَكَ الأَصِ ـــ رَّةَ وَالعِـــ لابا
إِذا نَهَضَ الكِرامُ إِلى المَعالي نَهَضتَ بِعُلبَـ ةٍ وَأَثَرتَ نابا
يَحِنُّ لَهُ العِفاسُ إِذا أَفَ ـ اقَت وَتَعرِفُهُ الفِصـــ الُ إِذا أَهابا
فَأَولِع بِالعِفاسِ بَني نُمَ ـــ يرٍ كَما أَولَعتَ بِال ـــ دَبَرِ اَلغُـ رابا
وَبِئسَ القَرضُ قَرضُكَ عِندَ قَيسٍ تُهَيِّجُهُم وَتَمتَدِحُ ال ـــ وِطابا
وَتَدعو خَمشَ أُمِّكَ أَن تَرانا نُجوماً لا تَرومُ لَها طِ ـــــ لابا
فَلَن تَسطيعَ حَنظَلَتي وَسُعدى وَلا عَمرى بَلَغتَ وَلا ال ـ ـرِبابا
قُرومٌ تَحمِلُ الأَعباءَ عَن ـ كُم إِذا ما الأَمرُ في الحَ ـ ـ دَثانِ نابا
هُمُ مَلَكوا المُلوكَ بِذاتِ كَهفٍ وَهُم مَنَعوا مِنَ اليَمَ ـ ـ نِ الكُلابا
يَرى المُتَعَيِّدونَ عَلَيَّ دوني أُسودَ خَفِيَّةِ الغُلبِ ال ـرِقـ ابا
إِذا غَضِبَت عَلَيكَ بَنو تَم ـ يمٍ حَسِبتَ الناسَ كُلُّ ـــ هُمُ غِضابا
أَلَسنا أَكثَرَ الثَقَلَينِ رَج ـــ لاً وَأَجدَرَ إِن تَجاسَرَ ثُ ـ مَّ نادى بِبَطنِ مِنىً وَأَعظَ ـ مُهُ قِبـــ ابا
وَأَجدَرَ إِن تَجاسَرَ ثُ ـ مَّ نادى بِدَعوى يالَ خِن ـ ـ دِفَ أَن يُجابا
لَنا البَطحاءُ تُفعِمُها السَواقي وَلَم يَكُ سَيلُ أَودِيَت ـــ ي شِعابا
فَـ ما أَنتُم إِذا عَدَلَت قُرومي شَقاشِقَها وَهافَتَتِ اللُ ـعـــ ابا
تَنَحَّ فَـ ـ إِنَّ بَحـــ ري خِندِفِيٌّ تَرى في مَوجِ جِريَتِهِ عُ ـبـ ابا

بِمَوجٍ كَالجِبالِ فَإِن تَرُم ـــ هُ تُغَرَّق ثُمَّ يَرمِ بِكَ الجَ ـنـــــ ابا
فَما تَلقى مَحَلِّيَ فَي تَم ـيـ مٍ بِذي زَلَلٍ وَلا نَسَبي اِنتِ ـشـ ابا
عَلَوتُ عَلَيكَ ذِروَةَ خِن ـ ـ دِفِيٍّ تَرى مِن دونِها رُتَباً صِ ـعـ ابا
لَهُ حَوضُ النَبيِّ وَس ـاقِـ ياهُ وَمَـ ـ نِ وَرِثَ النُـ ـبُوَّةَ وَالكِتابا
وَمِنّا مَن يُجيزُ حَجيجَ جَ ـمعٍ وَإِن خاطَبتَ عَزَّكُ ـــ مُ خِطـ ابا
سَتَعلَمُ مَن أَعِزُّ حِمىً بِنَ ـجـ دٍ وَأَعظَمُنا بِغ ـــ ائِرَةٍ هِـضـ ابا
أُغُرُّكَ بِالحِجازِ وَإِن تَسَهَّ ـ ـ لَ بِغَورِ الأَرضِ تُنتَه ـبُ اِنتِهـ ابا

أَتَيعَرُ يا اِبنَ بَروَعَ مِن بَعيدٍ فَقَد أَسمَعتَ فَاِستَمِعِ الجَ ـــ وابا
فَلا تَجزَع فَ ـــ إِنَّ بَنِـ ي نُمَيرٍ كَأَقوامٍ نَفَحتَ لَ ـهُ ـــــ م ذِنابا
شَياطينُ البِلادِ يَخَفنَ زَأري وَحَيَّةُ أَريَحاءَ لي اِستَجَ ـــــ ابا
تَرَكتُ مُجاشِعاً وَبَن ـ ي نُمَيرٍ كَدارِ السوءِ أَسرَعَتِ الخَ ـ رابا
أَلَم تَرَني وَسَمتُ بَن -ي نُمَيرٍ وَزِدتُ عَلـ ى أُنوفِهِمُ الع ـ لابا
إِلَيكَ إِلَيكَ عَبدَ بَني نُمَ ـــ يرٍ وَلَمّا تَقتَ ـــ دِح مِنّـ ي شِهـ ابا

ذاع صيت هذه القصيدة وحظيت بشهرة واسعة، ولعلها أشهر قصائد جرير سيرورة وتمثلاً وذلك لما صاحبها من حدث ومرويات، فقد ارتبطت بملابسات تاريخية تتعلق بالصراع بين جرير والشعراء الذين وقفوا له في إطار المهاجاة الطويلة.

وقد انهالت على هذه القصيدة المقولات النقدية والتسميات من قبل القدما، فسموها بالفاضحة، والدامغة وغيرها.

وقبل أن ينظم جرير هذه القصيدة أصابته حالة من الغضب والتوتر النفسي لما لحقه من خصومه، فعاش ليلة كاملة من الانفعال ولم يطعم جفنه النوم حتى أتى على آخر بيت في القصيدة تقول الرواية: " فجعل جرير - وهو ينظم القصيدة - يهمهم فسمعت صوته عجوز في الدار فاطلعت في الدرجة حتى نظرت إليه فإذا هو يحبو على الفراش عريانا لما هو فيه، فانحدرت فقالت: ضيفكم مجنون رأيت منه كذا وكذا ، فقالوا لها: اذهبي لطيتك نحن أعلم به وبما يمارس، فما زال كذلك حتى كان السحر ثم إذا هو يكبر قد قالها ثمانين بيتاً في بني نمير، فلما ختمها بقوله:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ من نُمَيرٍ فـ لا كَعْباً بلغتَ وَلا كِلاَبَا

كبر، ثم قال: أخزيتُه ورب الكعبة"[57].

وقد جاء في سبب نظم القصيدة خبراً مطولاً في كتب الأدب يقول:

"أن عرادة النميري كان نديما للفرزدق فقدم الراعي البصرة فقدم عرادة طعاما وشرابا فدعا الراعي ، فلما أخذت الكاس منهما قال عراده للراعي: يا أبا جندل قل شعرا تفضل الفرزدق على جرير فلم يزل يزين له ذلك حتى قال:

يا صاحبي دنا الأصيل فسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

فغدا به عرادة على الفرزدق فأنشده إياه ، وكان عبيد الراعي شاعر مضر وذا سنها ، فحسب جرير أنه مغلب الفرزدق عليه، فلقيه يوم الجمعة، فقال: يا أبا جندل إني أتيتك بخبر أتاني إني وابن عمي هذا - يعني الفرزدق- نستب صباحا ومساء وما عليك غلبة المغلوب ولا عليك غلبة الغالب ، فإما أن تدعني وصاحبي وإما أن تغلبني عليه لانقطاعي إلى قيس وحطي في حبلهم ، فقال له الراعي : صدقت لا أبعدك من خير ميعادك المربد فصحبه جرير ، فبينما هما يستخرج كل منهما مقالة صاحبه رآهما جندل بن عبيد فأقبل يركض على فرس له فضرب بغلة أبيه الراعي ، وقال: مالك يراك الناس واقفا على كلب بني كليب ؟ فصرفه عنه، فقال جرير: أما والله لأثقلن رواحلك ، ثم أقبل إلى منزلة فقال للحسين روايته : زد في دهن سراجك الليلة وأعدد لوحا ودواة، ثم أقبل على هجاء بني نمير، فلم يزل يملي حتى ورد عليه قوله:

فغض الطرف إنك من نمير فـ لا كعبا بلغت ولا كلابا

(57) الأغاني، ج8، ص34.

فقال: حسبك أطفئ سراجك ونم فرغت منه ، ثم إن جريرا أتم هذه بعد وكان يسميها الدامغة أو الدماغة ، وكان يسمى هذه القافية المنصورة، لأنه قال قصائد فيها كلهن أجاد فيها ، وبعد أن أتمها أدخل طرف ثوبه بين رجليه ، ثم هدر فقال : أخزيت ابن يربوع ، حتى إذا أصبح غدا ورأى الراعي في سوق الإبل ، فأتاه وأنشده إياها حتى وصل إلى قوله:

أجندل ما تقول بنو نمير إذا ما الأير في است أبيك غابا

فقال الراعي: شرا والله تقول:

علوت عليك ذروة خن دفي ترى من دونها رتبا صعابا
لنا حوض النبي وساق ـ ياه وم ـ ن ورث النبوة والكتابا
إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فقال الراعي وهو يريد نقضها:

أتاني أن جحش بني كليب تعرض حول دجلة ثم هابا
فأولى أن يظل البحر يطفو بحيث ينازع الماء السحابا
أتاك البحر يضرب جانبيه أغ ـ ر ترى لجريت ـه حبـ ابا

ثم كفّ ورأى أن لا يجيبه، فأجاب عنه الفرزدق على روي قوله:

أنا ابن العاصمين بني تميم إذا م ـ ا أعظم الحدثان نابا

ثم إن الراعي قال لابنه: يا غلام بئسما كسبنا قومنا، ثم قام من ساعته وقال لأصحابه : ركابكم فليس لكم ها هنا مقام فضحكم جرير ، فقال له بعض القوم : ذلك بشؤمك وشؤم ابنك . وسار إلى أهله فلما وصل إليهم سمع عند القدوم "فغض الطرف إنك من نمير .." وأقسم بالله ما بلغها إنسي وإن لجرير لأشياعا من الجن ، فتشاءمت به بنو نمير وسبوه وسبوه ابنه وهم يتشاءمون به إلى الآن[58].

وقد نسجت روايات عديدة حول أثر هذه القصيدة، ومسيرها مثلاً بين الناس، ويسلط الضوء بالذات على بيت واحد في القصيدة حول بني نمير، فقد روى الجاحظ[59]: "ان امرأة مرت بمجلس من مجالس بني نمير فتأملها ناس منهم فقالت : يا بني نمير لا قول الله سمعتم ، ولا قول الشاعر أطعتم ؛ قال الله تعالى : " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم"، وقال الشاعر:

فغض الطرف انك من نمير فـ لا كعبا بلغت ولا كلابا

ويروي الجاحظ[60] مشيرا - في موضع آخر - إلى فعل هذه القصيدة في بني نمير: " وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعَدد والفَعال مثل نُمير يصير أهلُه إلى ما صارت إليه نُمير وغير نمير فما ظُنُّكَ بالظُّلَيم وبمناف وبالحَبطات وقد بلغ مضرَّةُ جرير عليهم حيثُ قال:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قَوْماً آخَرين:

(58) خزانة الأدب، للبغدادي، ج1، ص87 -90.
(59) البيان والتبيين، للجاحظ، ص576.
(60) الحيوان، للجاحظ،ج1، ص364.

وسَوفَ يزيدُكم ضَعةَ هِجَائِي كما وضعَ الهِجاءُ بَنِي نُمَيْرِ

وحتّى قال أبو الرُّدَيْنيّ :

أتُوعِدُنِي لِتَقْتُلَنِي نُمَيْرٌ مَتى قَتَلَتْ نُمَيْر مَنْ هَجَاهَا

وقد ابتنت القصيدة على غير مبنى القصائد الأخرى في مقدمتها، فلم تلتزم بالطلل والديار، بل بدأت بالغزل الرقيق، ثم الأفتخار وبعد ذلك يأتي الهجاء الذي صال وجال فيه جرير، حتى روّع الخصوم وأفزعهم.
والقارئ للقصيدة يجد فيها عنفواناً ولغة غاضبة وأسلوباً ساخراً يظهر الشاعر في هياج وانتقام، حتى في بداية القصيدة الغزلية يظهر انفعال الشاعر وسخطه في إقلال اللوم، وهياج البرق والتهاب القلب لهابا، وسوء العلاقة مع المحبوب.

أما الهجاء فشغل معظم القصيدة، وتناول الشاعر عدداً من الشخصيات وقبائلهم، وصب عليهم وابلاً من العيوب وألصق بهم المخازي، ومن تلك الشخصيات الفرزدق والراعي النميري وغيرهم.

ومما زاد في قوة القصيدة إيقاعها الراقص الذي وفق الشاعر وأجاد في اختياره وزناً وقافية بتمازج وانسجام زاد في حسن المبنى، وعمق المعنى.

فوزن الوافر من الأوزان السريعة التي لا يتلكأ فيها المعنى ، ولا تتأرجح فيها المفردات، وإنما تنساب وتتوالى تأخذ برقاب بعضها وهذا ما فعله الشاعر بصياغته واختياره لمفرداته يساعده هذا الوزن الإيقاعي.
فالوافر بحر عروضي ينتمي إلى المجموعة الأولى التي تتكرر في شطريها تفعلية واحدة ، وتفعلية الوافر هي "مفاعلتن" تتكرر ست مرات" وهي تفعلية يتسم إيقاعها بالتموج الحركي والتفخيم، فيحدث جلجلة تتناسب مع القضايا الجدية.
وتأتي القافية بحرف الروي الباء المطلقة بحرف الخروج الألف لتعطي البيت الشعري انطلاقاً غير محدود في نهايته، فيما الإيقاع مع ألف الإطلاق بعد أن يحدث روي الباء الصامت وقفة تهز المشاعر. فالباء من حروف الذلاقة التي تتصف بالطلاقة والوضوح، ومن ثم تحدث إيقاعاً فخماً قوياً في قوافي الشعر سواء جاءت مطلقة أو مقيدة.

خلاصة البحث:

تفرد هجاء جرير عن غيره بميزتين عامة وخاصة: أما العامة فهي الرعاية الرسمية من قبل الخلفاء والأمراء لفن الهجاء المعروف بفن النقائض عموماً، وأما الخاصة فإن جريرا كان يقف لوحده أمام جيش كبير من الشعراء الخصوم المهاجمين وهو في موقف الدفاع والرد.

ولقد حار النقاد في الحكم على شعر جرير وتفضيله، فبعضهم يرى أن شعر جرير هو ذلك الشعر السهل في ألفاظه الميسور في معانيه ودلالاته وهو ما جعله سائراً متمكناً في وجدان العامة، لكن هذا الرأي إذا سلمنا بصوابه لا يمنع اهتمام الخاصة به ومتابعتهم له تماما كما هو حظ غيره من الشعراء الأقران.

والقارئ لشعر جرير والذي غلب عليه موضوع الهجاء والمهاجاة يجده ذا لغة متينة وقوية بعيدة عن الإغراب إلى حد كبير، وتميز أسلوب جرير بتوجيهالخطاب مباشرة نحو المخاطب المهجو وحفل شعره بصور بلاغية قائمة على التشبيهات والاستعارات وبعض الكنايات، كم اعتمد على مصطلحات ومسميات مكروهة وظفها في هجائه تجاه الخصوم، حتى إنه وصل في بعض الأحيان إلى حالة الفحش والإقذاع والإيلام.

ورغم ذلك يبقى الهجاء في تلك الفترة ومنه هجاء جرير نوعاً من العمل الفني المحترف لا يثير الخصومات كتلك التي كان يثيرها الهجاء في العصر الجاهلي.

المصادر والمراجع

١ - الأدب المفرد، للبخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ، دار البشائر الإسلامية - بيروتالطبعة الثالثة ، 1409 – 1989م.
٢ - الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت.
٣ - الأمالي في لغة العرب، لأبي علي القالي دار الكتب العلمية – بيروت1398هـ1978م.
٤ - البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق : المحامي فوزي عطوي، دار صعب – بيروت الطبعة الأولى1968م.
٥ - البداية والنهاية، لابن كثير
٦ - تاريخ آداب العرب، للرافعي،
٧ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. للذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت،الطبعة الأولى1407هـ - 1987م.
٨ - الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل1416- بيروت لبنان،هـ - 1996م.
٩ - خاص الخاص، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق : حسن الأمين، دار مكتبة الحياة – بيروت.
١٠ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، تحقيق: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت،
١١ - ديوان جرير، دار صادر بيروت لبنان.
١٢ - ديوان حسان بن ثابت، شرحه وضبطه: د.عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة والنشر بيروت لبنان.
١٣ - ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري.
١٤ - سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٥ - سنن أبي داود، تعليق: عزت الدعاس، دار الحديث حمص، الطبعة الأولى1969م.
١٦ - الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار إحياء العلوم بيروت، الطبعة الأولى1404هـ/ 1984م
١٧ - طبقات فحول الشعراء، لابن سلاّم الجمحي، تحقيق: محمود محمّد شاكر ، دار المدني ، جدة،
١٨ - العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف الطبعة الثامنة.
١٩ - العمدة لابن رشيق، تحقيق: د. محمد قرقزان، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الأولى1408هـ/1988م
٢٠ - لسان العرب،لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
٢١ - الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي – القاهرة ، الطبعة الثالثة 1417 هـ - 1997 م.
٢٢ - محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني.
٢٣ - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب المجذوب، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الرابعة 1991م ،
٢٤ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للعباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد عالم الكتب ، بيروت، 1367هـ1947م.
٢٥ - المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقي، الطبعة الرابعة1422هـ/2001م.
٢٦ - الموشح للمرزباني